فصول من كتاب

الإحاطة في أخبار غرناطة

تأليف

لسان الدين بن الخطيب

اختارها وقدمها

مدحت عبد العزيز

الكتاب: فصول من كتاب الإحاطة في أخبار غرناطة

الكاتب: لسان الدين بن الخطيب

اختارها وقدمها: مدحت عبد العزيز

الطبعة: ٢٠٢٢

الناشر: وكالة الصحافة العربية (ناشرون)

٥ ش عبد المنعم سالم – الوحدة العربية – مدكور- الهرم – الجيزة

جمهورية مصر العربية

هاتف: ٣٥٨٢٥٢٩٣ – ٣٥٨٦٧٥٧٦ – ٣٥٨٦٧٥٧٥

فاكس: ٣٥٨٧٨٣٧٣

http://www. bookapa.com E-mail: info@bookapa.com

دار الكتب المصرية

فهرسة أثناء النشر

بن الخطيب، لسان الدين

فصول من كتاب الإحاطة في أخبار غرناطة / لسان الدين بن الخطيب،

اختارها وقدمها / مدحت عبد العزيز

– الجيزة – وكالة الصحافة العربية.

٢٠١ ص، ١٨*٢١ سم.

الترقيم الدولي: ٠ – ٥٣٤ – ٩٩١ – ٩٧٧ – ٩٧٨

أ – العنوان رقم الإيداع: ١١٤٦٠ / ٢٠٢٢

فصول من كتاب

الإحاطة في أخبار غرناطة

وكالة الصحافة العربية
«ناشرون»

تقديم

صاحب هذا الكتاب هو لسان الدين محمد بن عبد الله بن سعيد السلماني الغرناطي الذي يعود نسبه إلى عرب اليمن القحطانية الذين هاجروا إلى الأندلس، وسكنوا قرطبة، وانتقلوا إلى طليطلة ثم في نهاية المطاف إلى غرناطة، وُلد بمدينة لوشة غربي مدينة غرناطة على بُعد خمسين كيلومترا منها، سنة ٧١٣هـ/١٣١٣م في بيت علم وفضل وأدب وجاه.

ويخبرنا ابن الخطيب في العديد من كتبه أن بيتهم كان يُسمى ببيت بني الوزير، ثم سُموا ببني الخطيب، وسبب هذه التسمية يرجع إلى عهد جدّه سعيد أول من استوطن من الأسرة مدينة لوشة، وكان عالما ورعا، ولهذا العلم الواسع فقد اشتهر بالخطيب، أما ابنه عبد الله فرغم أنه نشأ مترفا غير متعمق في مسائل العلوم والمعارف، فإن الحظ قد طرق بابه حين اتصل بالسلطان أبي الوليد إسماعيل بن الأحمر، الذي توفي قتيلا سنة ٧٢٥هـ/١٣٢٤م، فخدم عبد الله ابنه السلطان أبا الحجاج يوسف أعظم سلاطين غرناطة من بني الأحمر، حيث التحق عبد الله بديوان الإنشاء وظل يترقى فيه حتى وُصف بالوزير.

كانت الأندلس حينذاك قد دخلت في معترك الصراع ضد إسبانيا النصرانية في زمن السلطان أبي الحجاج يوسف الذي لم يجد بُدا من المطالبة بعون الدولة المرينية في المغرب الأقصى، والتي لبّى صاحبها السلطان أبو الحسن المريني النداء، وخرج الأندلسيون والمغاربة متحدين، لكن الهزيمة كانت من نصيبهم في السابع من جمادى الأولى سنة ٧٤١هـ/٣٠ أكتوبر ١٣٤١م في موقعة طريف الشهيرة، وفيها قُتل والد لسان الدين بن الخطيب وأخوه الأكبر، وكانت فادحة كبرى على الأندلس والمغرب على السواء.

وكان من حظ لسان الدين بن الخطيب أنه نشأ في ظل عز والده في الإنشاء والوزارة، وبين جنبات غرناطة العامرة بالعلماء والأدباء والفقهاء، وهي يومذاك المركز الحضاري الأبرز في الغرب الإسلامي، فنشأ ابن الخطيب متعلما على كبار علماء ذلك العصر، بيد أن وفاة والده صريعا في معركة طريف قد جعل منصبه خلوا، ثم كان الوباء الكبير أو الطاعون العام الذي انتشر في أوروبا وأفريقيا وآسيا قد تسبب في حصد أرواح آلاف الأندلسيين سنة ٧٤٩هـ/١٣٤٩م، وكان منهم ابن الجيّاب رئيس ديوان الإنشاء، وهو بمنزلة وزارة الخارجية لتلك العصور.

وقد ارتقى ابن الخطيب منصب رئاسة الديوان وهو محمل بتاريخ ومجد وعلم ونبوغ، واستغل هذا المنصب الجديد فتألّق فيه، وعظُمت منزلته، وأغدق السلطان أبو الحجاج يوسف بن الأحمر عليه عطفه، وآثره بثقته، وجعله كاتب سرّه ولسانه في المكاتبات السلطانية، وصدرت منها بقلم ابن الخطيب يومئذ طائفة من أبدع الرسائل الملوكية التي ينعتها العلامة ابن خلدون صديق ابن الخطيب في ذلك العصر بـ "الغرائب" لروعتها، وقد جمع ابن الخطيب الكثير منها فيما بعد في كتابه "ريحانة الكتاب ونجعة المنتاب".

وقد ارتفعت منزلة ابن الخطيب في ولاية السلطان أبي الحجاج يوسف بن الأحمر، حتى أصبح وزيرا مفوضا من قبله، وحين توفي السلطان أبو الحسن المريني أوفد السلطان يوسف وبعث إلى المغرب وفدا رفيعا لتقديم العزاء على رأسه وزيره ابن الخطيب، فقصد ابن الخطيب العاصمة المغربية آنذاك فاس، وقدّم عزاء سلطان الأندلس في شقيقه سلطان المغرب، وكان العاهل المغربي الجديد هو السلطان أبو عنان وذلك في جمادى الأولى سنة ٧٥٢هـ، وكانت هذه هي الزيارة الأولى لابن الخطيب إلى المغرب.

وقتها كان ابن الخطيب في الأربعين من عمره، يقول في كتابه الأشهر "الإحاطة في أخبار غرناطة": "فقلّدني السلطان سرّه، ولم

يستكمل الشباب، ويجتمع السن، معزّزة بالقيادة ورسوم الوزارة، واستعملني في السفارة إلى الملوك، واستنابني بدار مُلكه، ورمى إلى يدي بخاتمه وسيفه، وائتمنني على صوان حضرته، وبيت ماله، وسجوف حرمه، ومعقل امتناعه".

غير أن سلطان الأندلس في أثناء صلاته لعيد الفطر في عام ٧٥٥هـ لقي مصرعه على يد مجنون، وكانت الحادثة فُجاءة مما ترتب عليها ارتفاع ولده محمد الغني بالله إلى سدة العرش، معه الحاجب رضوان الذي كان على رأس الوزارة، كما ظل ابن الخطيب في منصبه وزيرا لديوان الإنشاء "وزارة الخارجية والإعلام"، وفي هذا يقول ابن الخطيب: "فنقلني من جلسة المواجهة إلى صف الوزارة، وعاملني بما لا مزيد عليه من العناية، وأحلّني المحل الذي لا فوقه في الخصوصية".

* * *

كانت الأندلس في تلك السنوات تتعرض لمخاطر العدوان القشتالي من الشمال، وهو عدوان ما لبث أن أظهر شوكته وقوته في الجنوب أيضا حين استولى القشتاليون على منطقتي طريف والجزيرة الخضراء في أقصى جنوب الأندلس، وكانت ثغورا منحها الأندلسيون للمغاربة من سلاطين دولة بني مرين للحماية والدفاع، على أن سقوط هذين الثغرين وهزيمة المرينيين من القشتالين ثم وفاة السلطان أبي

الحسن واعتلاء السلطان أبي عنان ولده، ثم اعتلاء السلطان محمد الغني بالله على الضفة الشمالية في الأندلس، قد استلزم إعادة الاتصال الدبلوماسي بين الجانبين لتأكيد التحالف السياسي والعسكري المشترك ضد العدوان القشتالي الصليبي المتواصل.

وللمرة الثانية يقود الوفد لسان الدين بن الخطيب نيابة عن سلطانه الجديد محمد الغني بالله بن الأحمر، وقد كتب ابن الخطيب رسالة خطية على لسان سلطانه تقر بدور المرينيين في حفظ الأمن والذود عن الديار الأندلسية في مواجهة القشتاليين، وتعترف بمقام السلطان المغربي الجديد، وتأمل منه الاستمرار على التحالف القديم، كما ختمت الرسالة بالإشارة إلى ابن الخطيب الوزير الأندلسي، وترجو أن يتلقاه السلطان أبو عنان وبالفعل استقبل السلطان المغربي أبو عنان الوزير ابن الخطيب استقبالا حافلا وذلك في الثامن والعشرين من ذي القعدة سنة ٧٥٥هـ.

* * *

أما كتاب "الإحاطـــة في أخبار غرناطة" فهو من أشهر وأضخم مؤلفات لسان الدين بن الخطيب، والذي استهله بمقدمة مسجعة بدأها بالحمد والثناء، ثم انتقل إلى ذكر السبب الذي دعاه إلى كتابته وهو أن بعض المصنفين أفرد لوطنه تاريخاً، فداخلته عصبية حب

الوطن، فأقدم على كتابة تاريخ وطنه غرناطة. وعنوان الكتاب يدل على الغاية التي رمى إليها ابن الخطيب بتأليفه، وهي تقديم صورة شاملة عن كل ما يتعلق بغرناطة من أوصاف وأخبار، فذكر مروجها وجبالها وأنهارها. وقد ترجم في الكتاب لأربعمائة وثلاثة وتسعين (٤٩٣) شخصية أندلسية ممن حكموا غرناطة أو وفدوا إليها من المغرب أو المشرق، من ملوك وأمراء وأعيان وولاة ووزراء وقضاة وأعيان وزهاد وصوفية، ولم ينس أن يكتب سيرته الذاتية في آخر الكتاب.

ولم يقم ابن الخطيب بتأليف كتابه دفعة واحدة، فقد بدأ بجمعه قبل نفيه مع سلطانه الغني بالله سنة ٧٦١هـ، واستأنف العمل فيه بعد عودته من المنفى سنة ٧٦٣هـ، فراجعه وزاد فيه وجعله في ستة مجلدات، وظل يضيف إليه وينقح فيه حتى عام ٧٧١هـ، تاريخ غزوة الغني بالله لأحواز إشبيلية التي كانت آنذاك في قبضة الإسبان، وقد يكون زاد فيه بعد هذا التاريخ، ونرجح أن يكون انتهى من تأليفه سنة ٧٧٢هـ، أي قبل فراره إلى المغرب بسنة.

وقد استعمل ابن الخطيب أكثر من تسمية للكتاب، فذكره إلى جانب العنوان الذي وضع به هذا الكتاب، بأسماء: "الإحاطة بتاريخ غرناطة" الذي قال إنه في سبعة أسفار و"الإحاطة بما تيسر من تاريخ

غرناطة" الذي قال إنه في تسعة أسفار" و"تاريخ غرناطة" الذي قال إنه "في اثني عشر سفراً"، كما ذكره بعنوان "الإماطة عن وجه الإحاطة في ما أمكن من تاريخ غرناطة" الترتيب الذي اعتمده في الكتاب هو ذكر الحاضرة الغرناطية، ووصف محاسنها والحديث عن الذين سكنوها وتولوها، ملتزماً بالترتيب الأبجدي لأصحاب التراجم، لا الترتيب التاريخي، وقدم الكتاب وجعله من قسمين، القسم الأول في حلي المعاهد والأماكن والمنازل والمساكن، والقسم الثاني في حلي الزائر والقاطن والمتحرك والساكن.

وبعد أن انتهى من مقدمة الكتاب بدأ في القسم الأول بفصل يدور حول اسم مدينة غرناطة، فقدم لنا وصفاً جغرافياً دقيقاً لهذه المدينة، ثم تناول تاريخها منذ أن نزل عليها العرب أيام الفتح حتى سلاطين بني نصر، ثم انتهى إلى فصل ثان ذكر فيه سير أهل غرناطة وأخلاقهم وأحوالهم وأنسابهم وجندهم وزيهم، وأنهى القسم الأول بفصل ثالث حصره فيمن تداول هذه المدينة منذ أصبحت دار إمارة، ثم بدأ القسم الثاني ويتناول الذين ترجم لهم وعقد في آخره ترجمة مختصرة لنفسه.

وهكذا يعد الكتاب من أهم المصادر الأندلسية في التراجم والتاريخ، فهو من جهة معجم في التراجم، ومن جهة ثانية كتاب في التاريخ، إلا أنه كتاب تراجم أكثر منه كتاب تاريخ.

مدحت عبد العزيز

مقدمة المؤلف

بسم الله الرّحمن الرّحيم وصلّى الله على سيّدنا محمد وآله وصحبه وسلّم قال الشيخ الأديب البارع أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن الخطيب السّلماني:

أمّا بعد حمد الله الذي أحصى الخلائق عددا، وابتلاهم اليوم ليجزيهم غدا، وجعل جيادهم تتسابق في ميادين الآجال إلى مدى، وباين بينهم في الصور والأخلاق والأعمال والأرزاق فلا يجدون بما قسم محيصا ولا فيما حكم ملتحدا، وسعهم علمه على تباين أفراقهم وتكاثف أعدادهم والدا وولدا، ونسبا وبلدا، ووفاة ومولدا، فمنهم النّبيه والخامل، والحالي والعاطل، والعالم والجاهل، ولا يظلم ربّك أحدا.

وجعل لهم الأرض ذلولا يمشون في مناكبها ويتّخذون من جبالها بيوتا ومن متاعها عددا. وخصّ بعض أقطارها بمزايا تدعو إلى الاغتباط والاعتمار، وتحثّ على السكون والاستقرار، متبوّءا فسيحا، وهواء صحيحا، وماء نميرا، وامتناعا شهيرا، ورزقا رغدا. فسبحان من جعل التّفاضل في المساكن والسّاكن، وعرّف العباد عوارف اللطف في الظاهر والباطن، ولم يترك شيئا سدى.

والصلاة والسلام على سيّدنا ومولانا محمد الذي ملأ الكون نورا وهدى، وأوضح سبيل الحق وكانت طرائق قددا، أعلى الأنام يدا، وأشرف الخلق ذاتا وأكرمهم محتدا، الذي أنجز الله به من نصر دينه الحقّ موعدا، حتى بلغت دعوته ما زوي له من هذا المغرب الأقصى فرفعت بكل هضبة معلما وبنت بكل قلعة مسجدا.

والرّضى على آله وأصحابه الذين كانوا لسماء سنّته عمدا، ليوث العدا، وغيوث النّدى، ما أقل ساعد يدا، وعمر فكر خالدا، وما صباح بدا، وأورق شدا، فإن الله، عزّ وجهه، جعل الكتاب لشوارد العلم قيدا، وجوارح اليراع تثير في السهول الرّقاع صيدا. ولولا ذلك لم يشعر آت في الخلق بذاهب، ولا اتصل شاهد بغائب، فماتت الفضائل بموت أهلها، وأفلت نجومها عن أعين مجتليها، فلم يرجع إلى خبر ينقل، ولا دليل يعقل، ولا سياسة تكتسب، ولا أصالة إليها ينتسب، فهدى سبحانه وألهم، وعلّم الإنسان بالقلم، علم ما لم يكن يعلم، حتى ألفينا المراسم بادية، والمراشد هادية، والأخبار منقولة، والأسانيد موصولة، والأصول محرّرة، والتواريخ مقرّرة، والسير مذكورة، والآثار مأثورة، والفضائل من بعد أهلها باقية خالدة، والمآثر ناطقة شاهدة، كأنّ النهار القرطاس، والليل المداد، ينافسان الليل والنهار،

في عالم الكون والفساد، فمهما طويا شيئا، ولعا هما بنشره، أو دفنا ذكرا دعوا إلى نشره.

فلو أنّ لسان الدهر نطق، وتأمّل هذه المناقضة وتحقّق، لأتى بما شاء من عتب ولوم، وأنشده: أعلّمه الرماية كل يوم.

ولمّا كان الفنّ التاريخي مأرب البشر، ووسيلة إلى ضمّ النشر، يعرفون به أنسابهم في ذلك شرعا وطبعا ما فيه، ويكتسبون به عقل التجربة في حال السكون والتّرفيه، ويستدلّون ببعض ما يبدي به الدهر وما يخفيه، ويرى العاقل من تصريف قدرة الله تعالى ما يشرح صدره بالإيمان ويشفيه، ويمرّ على مصارع الجبابرة فيحسبه بذلك واعظا ويكفيه، وكتاب الله يتخلّله من القصص ما يتمّم هذا الشاهد لهذا الفن ويوفّيه. وقال الله تعالى: وَكُلًّا نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْباءِ الرُّسُلِ ما نُثَبِّتُ بِهِ فُؤادَكَ. وقال عزّ وجلّ: نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِما أَوْحَيْنا إِلَيْكَ هذَا الْقُرْآنَ وَإِنْ كُنْتَ مِنْ قَبْلِهِ لَمِنَ الْغافِلِينَ.

فوضح سبيل مبين، وظهر أن القول بفضله يقتضيه عقل ودين، وأن بعض المصنّفين ممّن ترك نومه لمن دونه، وأنزف ماء شبابه مودعا إياه بطن كتابه يقصده الناس ويردونه، اختلفت في مثل هذا الباب أغراضهم؛ فمنهم من اعتنى بإثبات حوادث الزمان، ومنهم من اعتنى برجاله بعد اختيار الأعيان، عجزا عن الإحاطة بهذا الشأن، عموما في

أكثر الأقطار وخصوصا في بعض البلدان، فاستهدف إلى التعميم فرسان الميدان، وتوسّعوا بحسب مادة الاطّلاع وجهد الإمكان، وجنح إلى التخصيص من أثر الأولوية بحسب ما يخصّه من المكان، ويلزمه من حقوق السكان، مغرما برعاية عهود وطنه وحسن العهد من الإيمان، بادئا بمن يعوله كما جاء في الطّرق الحسان.

فتذكرت جملة من موضوعات من أفرد لوطنه تاريخا هزّ إليها– علم الله– وفاء وكرم، ودار عليها بقول الله من رحمته الواسعة حرم، كتاريخ مدينة بخارى لأبي عبد الله محمد بن أحمد بن سليمان الفخار. وتاريخ أصبهان لأبي نعيم أحمد بن عبد الله الحافظ صاحب الحلية. وتاريخ أصبهان أيضا لأبي زكريا يحيى بن عبد الوهاب بن قندة الحافظ. وتاريخ نيسابور للحاكم أبي عبد الله بن اليسع، وذيله لعبد الغافر بن إسماعيل. وتاريخ همذان لأبي شجاع شيرويه بن شهردار بن شيرويه محمد بن فنا خسرو الديلمي. وتاريخ طبقات أهل شيراز لأبي عبد الله محمد بن عبد العزيز بن القصار. وتاريخ هراة، أظنه لأبي عبد الله الحسن بن محمد الكتبي.

وأخبار هراة أيضا ومن نزلها من التابعين وغيرهم من المحدّثين لأبي إسحاق أحمد بن ياسين الحداد. وتاريخ سمرقند لعبد الرحمن بن محمد الأردسي. وتاريخ نسف لجعفر بن المعبر المستغفري. وتاريخ جرجان

لأبي القاسم حمزة بن يوسف بن إبراهيم السهمي. وتاريخ الرّقّة لأبي علي محمد بن سعيد بن عبد الرحمن القشيري. وتاريخ بغداد للخطيب أبي بكر بن ثابت، وذيله لأبي سعيد عبد الكريم بن محمد بن منصور السمعاني. وأخبار بغداد لأحمد بن أبي طاهر. وتاريخ واسط لأبي الحسين علي بن الطيب الخلافي. وتاريخ من نزل حمص من الصحابة ومن دخلها، ومن ارتحل عنها، ومن أعقب، ولم يعقّب، وحدّث ولم يحدّث، لأبي القاسم عبد الصمد بن سعيد القاضي. وتاريخ دمشق لأبي القاسم علي بن الحسن بن عساكر.

وتاريخ مكة للأزرقي. وتاريخ المدينة لابن النجّار. وتاريخ مصر لعبد الرحمن بن أحمد بن نواس. وتاريخ الإسكندرية لوجيه الدين أبي المظفر منصور بن سليمان بن منصور بن سليم الشافعي. وتاريخ طبقات فقهاء تونس لأبي محمد عبد الله بن إبراهيم بن أبي العبّاس بن خلف التميمي. وعنوان الدّراية في ذكر من كان في الماية السابعة ببجاية، لأبي العباس بن الغبريني. وتاريخ تلمسان لابن الأصفر، وتاريخها أيضا لابن هديّة. وتاريخ فاس لابن عبد الكريم، وتاريخها أيضا لابن أبي زرع.

وتاريخ فاس أيضا للقونجي، وتاريخ سبتة، المسمّى بالفنون السّتّة، لأبي الفضل عياض بن موسى بن عياض، تركه في مسوّدته. وتاريخ

بلنسية لابن علقمة. وتاريخ إلبيرة لأبي القاسم محمد بن عبد الواحد الغافقي الملّاحي. وتاريخ شقورة لابن إدريس. وتاريخ مالقة لأبي عبد الله بن عسكر، تركه غير متمّم، فتمّمه بعد وفاته ابن أخيه أبو بكر خمسين. والإعلام بمحاسن الأعلام من أهل مالقة، لأبي العباس أصبغ بن العباس. والاحتفال في أعلام الرجال، لأبي بكر الحسن بن محمد بن مفرّج القيسي. وتاريخ قرطبة، ومنتخب كتاب الاحتفال، وتاريخ الرؤساء والفقهاء والقضاة بطليطلة، لأبي جعفر بن مظاهر، ومنتخبه لأبي القاسم بن بشكوال. وتاريخ فقهاء قرطبة لابن حيّان. وتاريخ الجزيرة الخضراء لابن خمسين. وتاريخ قلعة يحصب، المسمّى بالطالع السّعيد، لأبي الحسن بن سعيد. وتاريخ بقيرة، لأبي عبد الله بن المؤذن. والدّرّة المكنونة في أخبار أشبونة، لأبي بكر بن محمد بن إدريس الفرابي العالوسي. ومزيّة ألمريّة لأبي جعفر أحمد بن خاتمة، من أصحابنا. وتاريخ ألمرية وباجة، لشيخنا نسيج وحده أبي البركات بن الحاج، متّع الله بإفادته، وهو في مبيّضته، لم يرمها بعد.

فداخلتني عصبيّة لا تقدح في دين ولا منصب، وحميّة لا يذمّ في مثلها متعصّب، رغبة أن يقع سؤالهم وذكرهم من فضل الله جناب مخصب، ورأيت أن هذه الحضرة التي لا خفاء بما وفّر الله من أسباب إيثارها، وأراده من جلال مقدارها، جعلها ثغر الإسلام ومتبوّأ العرب

الأعلام، قبيل رسوله، عليه أفضل الصلاة وأزكى السلام، وما خصّها به من اعتدال الأقطار، وجريان الأنهار، وانفساح الاعتمار، والتفاف الأشجار. نزلها العرب الكرام عند دخولهم مختطّين ومقتطعين، وهبّوا بدعوة فضلها مهطعين، فعمروا وأولدوا، وأثبتوا المفاخر وخلّدوا، إلى أن صارت دار ملك، ولبّة سلك، فنبه المقدار وإن كان نبيها، وازدادت الخطّة ترفيعا، وجلب إلى سوق الملإ بما نفق فيها. فكم ضمّت جدرانها من رئيس يتّقي الصباح هجومه، ويتخوّف اللّيل طروقه ووجومه، ويفتقر الغيث لنوافله الممنوحة وسجومه، وعالم يبرز للفنون فيطيعه عاصيها، ويدعو بالمشكلات فيأخذ بنواصيها، وعالم بالله قد وسم السجود جبينه، وأشعث أغبر لو أقسم على الله لأبرّ يمينه، وبليغ قد أذعنت لبراعة خطّه وشيجة الخط، يغوص على درر البدائع، فيلقيها من طرسه الرائع على الشّط، لم يقم بحقها ممتعض حقّ الامتعاض، ولا فرّق بين جواهرها وبين الأغراض. هذا وسمر الأقلام مشرعة، ومكان القول والحمد لله ذو سعة، فهي الحسناء التي عدمت الذّام، وزيّنت الليالي والأيام. والهوى إن قيل كلفت بمغانيها، وقصرت الأيام على معانيها، فعاشق الجمال عذره مقبول، ولله درّ أبي الطيب حيث يقول:

ضروب الناس عشّاق ضروبا فأعذرهم أشفّهم حبيبا

فلست ببدع ممّن فتن بحب وطن، ولا بأول ما شاقه منزل فألقى بالعطن، فحبّ الوطن معجون بطينة ساكنه، وطرفه مغرى بإتمام محاسنه، وقد نبّه علي بن العباس على السّبب، وجاء في التماس التّعليل بالعجب، حيث يقول:

وحبّب أوطان الرجال إليهم مآرب قضّاها الشّباب هنالكا
إذا ذكروا أوطانهم ذكّرتهم عهود الصّبا فيها فحنّوا لذلكا

ورميت في هذا المعنى بسهم سديد، وألمحت بغرض إن لم يكنه فليس ببعيد:

أحبّك يا مغنى الجلال بواجب وأقطع في أوصافك الغرّ أوقات
تقسّم منك الترّب قومي وجيرتي ففي الظّهر أحياء وفي البطن أموات

وقد كان أبو القاسم الغافقي من أهل غرناطة، قام من هذا الغرض بفرض، وأتى من كله ببعض، فلم يشف من غلّة، ولا سدّ خلّة، ولا كثّر قلّة، فقمت بهذا الوظيف، وانتدبت فيه للتأليف، ورجوت على نزارة حظّ الصّحة، وازدحام الشواغل الملحّة، أن أضطلع من هذا القصد بالعبء الذي طالما طأطأت له الأكتاد، وأقف منه الموقف الذي تهيّبته الأبطال الأنجاد، فاتخذت الليل جملا لهذه الطّيّة، وانتضيت غارب العزم ونعمت المطيّة، بحيث لا مؤانس إلّا ذبال يكافح جيش الدّجى، ودفاتر تلفح الحجا، وخواطر تبتغي إلى سماء الإجادة معرجا؛ وإذا صحب العمل صدق النّيّة، أشرقت من

التّوفيق كلّ ثنيّة، وطلعت من السّداد كلّ غرّة سنيّة، وقد علم الله أني لم أعتمد منها دنيا أستمنحها، ولا نسمة جاه يستنشق ريحها؛ وإنما هو صبح تبيّن، وحقّ رأيته عليّ قد تعيّن، بذلت فيه جهدي، وأقطعته جانب سهدي، لينظم هذا البلد بمثله، مما أثير كامنه، وسطّرت محاسنه، وأنشر بعد الممات جانبه:

وما شرّ الثلاثة أمّ عمرو   بصاحبك الذي لا تصبحينا

فلم أدع واحدة إلّا استنجدتها، ولا حاشية إلّا احتشدتها، ولا ضالّة إلّا نشدتها؛ والمجتهد في هذا الغرض مقصّر، والمطيل مختصر، إذ ما ذكر لا نسبة بينه وبين ما أغفل، وما جهل أكثر مما نقل، وبحار المدارك مسجورة، وغايات الإحسان على الإنسان محجورة؛ ومن أراد أن يوازن هذا الكتاب بغيره من الأوضاع فليتأمّل قصده، ويثير كامنه، ويبدي خبائنه، تتّضح له المكرمة، ولا تخفى عليه النّصفة، ويشاهد مجزي السّيّئة بالحسنة، والإغراب عن الوصمة والظّنّة، إذ الفاضل في عالم الإنسان، من عددت سقطاته، فما ظنّك بمفضوله. وللمعاصر مزية المباشرة، ومزيد الخبرة، وداعي التشفّي والمقارضة؛ وسع الجميع السّتر، وشملهم البرّ، ونشرت جنائزهم لسقي الرحمة، ومثني الشفاعة، إلّا ما شذّ من فاسق أباح الشرع حماه، أو غادر وسمه الشؤم الذي جناه، فتختلّ عرضه عن تخليد مجد، وتدوين فخر، وإبقاء ذكر، لمن لم

يهمّه قطّ تحقيق اسم أبيه، ولم يعمل لما بعد يومه، فكم خلف مما ذكر فيه يجده بين يديه، شفيعا في زلّة، أو آخذا بضبع إلى رتبة، أو قائما عند ضيم بحجّة؛ أو عانس يقوم لها مقام متاع ونحلة، أو غريب يحلّ بغير قطره فيفيده نحلة، صاعد خدم قاعدا ونائما. وقد رضينا بالسلامة عن الشكر، والإصغاء عن المثوبة، والنّصفة عوض الحسرة، إذ الناس على حسب ما سطّر ورسم، ولا حول ولا قوّة إلّا بالله العليّ العظيم.

والترتيب الذي انتهت إليه حيلتي، وصرفت في اختياره مخيلتي، هو أني ذكرت البلدة، حاطها الله، منبّها منها على قديمها، وطيب هوائها وأديمها، وإشراق علاها، ومحاسن حلاها، ومن سكنها وتولّاها، وأحوال أناسها، ومن دال بها من ضروب القبائل وأجناسها، وأعطيت صورتها، وأزحت في الفخر ضرورتها، وذكرت الأسماء على الحروف المبوّبة، وفصلت أجناسهم بالتراجم المترتّبة، فذكرت الملوك والأمراء، ثم الأعيان والكبراء، ثم الفضلاء، ثم القضاة، ثم المقرئين والعلماء، ثم المحدّثين والفقهاء، وسائر الطلبة النجباء، ثم الكتّاب والشعراء، ثم العمّال الأثراء، ثم الزّهّاد والصّلحاء، والصوفيّة والفقراء، ليكون الابتداء بالملك، والاختتام بالمسك، ولينظم الجميع انتظام السّلك، وكلّ طبقة تنقسم إلى من سكن المدينة بحكم الأصالة والاستقرار، أو

طرأ عليها مما يجاورها من الأقطار، أو خاض إليها وهو الغريب أثباج البحار، أو ألمّ بها ولو ساعة من نهار؛ فإن كثرت الأسماء نوّعت وتوسّعت، وإن قلت اختصرت وجمعت. وآثرت ترتيب الحروف في الأسماء، ثم في الأجداد والآباء، لشرود الوفيات والمواليد، التي رتّبها الزمان عن الاستقصاء، وذهبت إلى أن أذكر الرجل ونسبه وأصالته وحسبه، ومولده وبلده، ومذهبه وأنحاله؛ والفنّ الذي دعا إلى ذكره، وحليته ومشيخته، إن كان ممّن قيّد علما أو كتبه؛ ومآثره إن كان ممّن وصل الفضل بسببه؛ وشعره إن كان شاعرا؛ وأدبه وتصانيفه، إن كان ممّن ألّف في فن أو هذّبه؛ ومحنته إن كان ممّن بزّه الدهر شيئا أو سلبه؛ ثم وفاته ومنقلبه، إذ استرجع الله من منحه حياته ما وهبه. وجعلت هذا الكتاب قسمين، ومشتملا على فنّين: القسم الأول؛ «في حلى المعاهد والأماكن، والمنازل والمساكن» والقسم الثاني؛ «في حلى الزّائر والقاطن، والمتحرّك والسّاكن».

القسم الأول

في حلى المعاهد والأماكن والمنازل والمساكن

في اسم هذه المدينة ووضعها على إجمالٍ واختصار يقال غرناطة ويقال إغرناطة وكلاهما أعجمي وهي مدينة كورة إلبيرة فبينهما فرسخان وثلثا فرسخ.

وإلبيرة من أعظم كور الأندلس ومتوسطة ما اشتمل عليه الفتح من البلاد وتسمى في تاريخ الأمم السالفة من الروم سنام الأندلس وتدعى في القديم بقسطيلية. وكان لها من الشهرة والعمارة ولأهلها من الثروة والعدة وبها من الفقهاء والعلماء ما هو مشهور.

قال أبو مروان ابن حيان: كان يجتمع بباب المسجد الجامع من إلبيرة خمسون حكمة كلها من فضة لكثرة الأشراف بها. ويدل على ذلك آثارها الخالدة وأعلامها الماثلة كطلل مسجدها الجامع الذي تحامى استطالة البلى كسلت عن طمس معالمه أكف الردى إلى بلوغ ما فسح له من المدى.

بناه الأمير محمد بن عبد الرحمن بن الحكم أمير المؤمنين الخليفة بقرطبة رحمه الله على تأسيس حنش بن عبد الله الصنعاني الشافعي

رحمه الله وعلى محرابه لهذا الوقت: بسم الله العظيم بنيت لله أمر ببنائها الأمير محمد بن عبد الرحمن أكرمه الله رجاء ثوابه العظيم وتوسيعًا لرعيته فتم بعون الله على يدي عبد الله بن عبد الله عامله على كورة إلبيرة في ذي قعدة سنة خمسين ومائتين.

ولم تزل الأيام تخيف ساكنها والعفاء يتبوأ مساكنها والفتن الإسلامية تجوس أماكنها حتى شملها الخراب وتقسم قاطنها الاغتراب وكل الذي فوق التراب تراب.

وانتقل أهلها مدة أيام الفتنة البربرية سنة أربعمائة من الهجرة فما بعدها، ولجأوا إلى مدينة غرناطة فصارت حاضرة الصقع وأم المصر وبيضة ذلك الحق لحصانة وضعها وطيب هوائها ودرور مائها ووفور مدتها فأمن فيها الخائف ونظم النشر ورسخت الأقدام وتأثل المصر وهلم جرا. فهي بالأندلس قطب بلاد الأندلس ودار الملك وقرى الإمارة أبقاها الله متبوأ الكلمة إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها بقدرته.

من كتاب إلبيرة

قال: بعد ذكر إلبيرة وقد خلفها بعد ذلك كله مدينة غرناطة من أعظم مدنها وأقدمها عندما انقلبت العمارة إليها من إلبيرة ودارت

أفلاك البلاد الأندلسية فهي في وقتنا هذا قاعدة الدنيا وقرارة العليا وحاضرة السلطان وقبة العدل والإحسان.

لا يعد لها في داخلها ولا خارجها بلد من البلدان ولا يضاهيها في اتساع عمارتها وطيب قرارتها وطنٌ من الأوطان. ولا يأتي على حصر أوصاف جمالها وعد أصناف جلالها قلم البيان.

أدام الله فيها العز للمسلمين والإسلام وحرسها ومن اشتملت عليه من خلفائه وأنصار لوائه بعينه التي لا تنام وركنه الذي لا يرام.

وهذه المدينة من معمور الإقليم الخامس يبتدئ من الشرق من بلاد يأجوج ومأجوج ثم يمر على شمال خراسان ويمر على سواحل الشأم مما يلي الشمال ويمر على بلاد الأندلس قرطبة وإشبيلية وما والاها إلى البحر المحيط الغربي.

وقال صاعد بن أحمد في كتاب الطبقات إلى معظم الأندلس في الإقليم الخامس وطائفة منها في الإقليم الرابع كمدينة إشبيلية ومالقة وغرناطة وألمرية ومرسية. وذكر العلماء بصناعة الأحكام أن طالعها الذي اختطت به السرطان ونحلوها لأجل ذلك مزايا وحظوظًا من السعادة اقتضاها تسيير أحكام القرانات الانتقالية على عهد تأليف هذا الموضع. وطولها سبع وعشرون درجة وثلاثون دقيقة وعرضها سبع وثلاثون درجة وعشر دقائق.

وهي مساوية في الطول بأمر يسير لقرطبة وميورقة وألمرية وتقرب في العرض من إشبيلية وألمرية وشاطبة وطرطوشة وسردانية وأنطاكية والرقة.

كل ذلك بأقل من درجة. فهي شاميةٌ في أكثر أحوالها قريبة من الاعتدال وبينها وبين قرطبة أعادها الله تعالى تسعون ميلا. وهي منها بين شرق وقبلة. وبحر الشأم يحول ويحاجز بين الأندلس وبلاد العدوة وبين غربٍ وقبلة على أربعة برد. والجبال بين شرق وقبلة والبراجلات بين شرق وجوف والكنبانية بين غرب وقبلة وبين جوف وغرب فهي لمكان جوار الساحل ممارة بالبواكر الساحلية طيبة البحار وركاب لجهاد البحر ولمكان استقبال الجبال المقصودة بالفواكة المتأخرة اللحاق معللةٌ بالمدخرات استدبار الكنبانية واضطبار البراجلات بحرٌ من بحور الحنطة ومعدنٌ للحبوب المفضلة ولمكان شلير جبل الثلج أحد مشاهير جبال الأرض الذي ينزل به الثلج شتاءً وصيفًا وهو على قبلة منها على فرسخين وينساب منه ستةٌ وثلاثون نهرًا من فوهات الماء وتنبجس من سفوحه العيون صح منها الهواء واضطردت في أرجائها وساحاتها المياه وتعددت الجنات بها والبساتين والتفت الأدواح وشمر الرواد على منابت العشب في مظان العقار مستودعات الأدوية والترياقية. وبردها لذلك في المنقلب الشتوي شديد وتجمد بسببه الأدهان والمائعات

ويتراكم بساحاتها الثلج في بعض السنين فجسوم أهلها لصحة الهواء صلبة وهي دار منعة وكرسي ملك ومقام حصانة.

وكان ابن غانية يقول للمرابطين في مرض موته وقد عول عليها للامتساك بدعوتهم: الأندلس درقةٌ وغرناطة قبضتها فإذا جشمتم يا معشر المرابطين القبضة لم تخرج الدرقة من أيديكم.

ومن أبدع ما قيل في الاعتذار عن شدة بردها ما هو غريب في معناه قول شيخنا القاضي أبي بكر بن شبرين رحمة الله: رعى الله من غرناطة متبوأ يسر كئيبًا أو يجير طريدا تبرم منها صاحبي عندما رأى مسارحها بالبرد عدن جليدا هي الثغر صان الله من أهلت به وما خير ثغرٍ لا يكون برودا وقال الرازي عند ذكر كورة إلبيرة: ويتصل بأحواز قبرة كورة إلبيرة وهي بين الشرق والقبلة وأرضها سقى غزيرة الأنهار كثيرة الثمار ملتفة الأشجار أكثرها أدواح الجوز ويحسن فيها قصب السكر ولها معادنٌ جوهريةٌ من ذهب وفضة ورصاص وحديد.

وكورة إلبيرة أشرف الكور نزلها جند دمشق.

وقال: لها من المدن الشريفة مدينة قسطلية وهي حاضرة إلبيرة وفحصها لا يشبه بشيء من بقاع الأرض طيبًا ولا شرفًا إلا بالغوطة غوطة دمشق.

وقال بعض المؤرخين: ومن كرم أرضنا أنها لا تعدم زريعةً بعد زريعةٍ ورعيًا بعد رعى طول العام وفي عمالتها المعادن الجوهرية من الذهب والفضة والرصاص والحديد والتوتية.

وبناحية دلاية من عملها عود اليلنجوج لا يفوقه العود الهندي ذكًا وعطر رائحة. وقد سيق منه لخيران صاحب المرية أصلٌ كان منبته بين أحجار هناك.

وبجبل شلير منها سنبل فائق الطيب وبه الجنطيانا يحمل منه إلى جميع الآفاق وهو عقيرٌ رفيع ومكانه من الأدوية الترياقية مكانه. وبه المر قشينة على اختلافها واللازورد. وبفحصها وما يتصل به القرمز. وبها من العقار والأدوية النباتية والمعدنية ما لا يحتمل ذكرها الإيجاز.

وكفى بالحرير الذي فضلت به فخرًا وقيتةً وغلة شريفة وفائدة عظيمة تمتاره منها البلاد وتجلبه الرفاق وفضيلة لا يشاركها فيها إلا البلاد العراقية.

وفحصها الأفيح المشبه بالغوطة الدمشقية حديث الركاب وسمر الليالي قد دحاه الله في بسيط سهل تخترقه المذانب وتتخلله الأنهار جداول وتتزاحم فيه القرى والجنات في ذرع أربعين ميلًا أو نحوها تنبو العين فيها عن وجهه ولا تتخطى المحاسن منها إلا مقدار رقعة الهضاب والجبال المتطامية منه بشكل ثلثي دارةٍ قد عرت منه المدينة فيما يلي

المركز لجهة القبلة مستندة إلى أطواد سامية وهضاب عالية ومناظر مشرفة: فهي قيد البصر ومنتهى الحسن ومعنى الكمال أضفى الله عليها وعلى من بها من عباده المؤمنين جناح ستره ودفع عنهم عدو الدين بقدرته.

فتح هذه المدينة ونزول العرب الشاميين من جند دمشق بها وما كانت عليه أحوالهم وما تعلق بذلك من تاريخ قال المؤلف: اختلف المؤرخون في فتحها.

قال ابن القوطية: إن يليان الرومي الذي ندب العرب إلى غزو الأندلس طلبًا لو تره من ملكها لذريق بما هو معلوم قال لطارق بن زياد مفتتحها عندما كسر جيش الروم على وادي لكه: قد فضضت جيش القوم ودوخت حاميتهم وصيرت الرعب في قلوبهم فاصمد لبيضتهم وهؤلاء أدلاء من أصحابي ففرق جيوشك في البلدان بينهم واعمد أنت إلى طليطلة بمعظمهم وأشغل القوم عن النظر في أمرهم والاجتماع إلى ولي رأيهم.

قال: ففرق طارق جيوشه من إستجة فبعث مغثيًا الرومي مولى الوليد ابن عبد الملك بن مروان إلى قرطبة وبعث جيشًا آخر إلى مالقة وأرسل جيشًا ثالثًا إلى غرناطة مدينة إلبيرة وسار هو في معظم الناس إلى كورة جيان يريد طليطلة.

قال فمضى الجيش الذي وجه طارق إلى مالقة ففتحها ولجأ علوجها إلى جبال هناك ممتنعة. ثم لحق ذلك الجيش بالجيش المتوجة إلى إلبيرة فحاصروا مدينتها وفتحوها عنوة وألفوا بها يهودًا ضموهم إلى قصبة غرناطة وصار لهم ذلك سنة متبعة متى وجدوا بمدينة فتحوها يهودًا يضمونهم إلى قصبتها ويجعلون معهم طائعةً من المسلمين يسدونها. ثم مضى الجيش إلى تدمير.

وكان دخول طارق بن زياد الأندلس يوم الإثنين لخمس خلون من رجب سنة اثنين وتسعين. وقيل في شعبان. وقيل في رمضان بموافقة شهر غشت من شهور العجمية.

وذكر معاوية بن هشام وغيره أن فتح ما ذكر تأخر إلى دخول موسى ابن نصير في سنة ثلاث وتسعين. فتوجه ابنه عبد الأعلى في جيش إلى تدمير فافتتحها ومضى إلى إلبيرة فافتتحها ثم توجه إلى مالقة.

قال المؤلف رحمة الله: ولما استقر ملك الإسلام بجزيرة الأندلس ورمى إلى قصبتها الفتح واشرأب في عرصاتها الدين ونزلت قرطبة وسواها العرب فتبوؤوا الأوطان وعمروا البلدان فالداخلون على يد موسى بن نصير يسمون بالبلديين والداخلون بعدهم مع بلج بن بشر

القشيري يسمون بالشاميين وكان دخول بلج بن بشر القشيري بالطالعة البلجية سنة خمس وعشرين ومائة.

ولما دخل الشاميون مع أميرهم بلج حسبما تقرر في موضعه وهم أسود الشرى عزة وشهامة غص بهم السابقون إلى الأندلس وهم البلديون وطالبوهم بالخروج عن بلدهم الذي فتحوه وزعموا أنه لا يحملهم وإياهم واجتمعوا لغزوهم فكانت الحروب تدور بينهم إلى أن وصل الأندلس أبو الخطار حسام بن ضرار الكلبي عابرًا إليها البحر من ساحل تونس وأظل على قرطبة على حين غفلة وقد ستر خبر نفسه والحرب بينهم فانقاد إليه الجميع بحكم عهد مدينه حنظلة ابن صفوان وإلى إفريقية وقبض على وجوه الشاميين عازمًا عليهم في الإنصراف حسبما هو مشهور ورأى تفريق القبائل في كور الأندلس ليكون أبعد للفتنة ففرقهم وأقطعهم ثلث أموال أهل الذمة الباقين من الروم فخرج القبائل الشاميون عن قرطبة.

قال أبو مروان: أشار على أبي الخطار أرطباس قومس الأندلس وزعيم عجم الذمة ومستخرج خراجهم لأمراء المسلمين – وكان هذا القومس شهير العلم والدهاء - لأول الأمر بتفريق القبائل الشاميين العلمين عن البلد عن دار الإمارة قرطبة إذ كانت لا تحملهم وإنزالهم بالكور على شبه منازلهم التي كانت في كور شامهم ففعل ذلك على

اختيار منهم فأنزل جند دمشق كورة إلبيرة وجند الأردن كورة جيان وجند مصر كورة باجة وبعضهم بكورة تدمير: فهذه منازل العرب الشاميين وجعل لهم ثلث أموال أهل الذمة من العجم طعمةً وبقي العرب والبلديون والبرابر شركاؤهم فلما رأوا بلدانًا شبه بلدانهم بالشأم نزلوا وسكنوا واغتبطوا وكبروا وتمولوا إلا من كان قد نزل منهم لأول قدومه في الفتوح على عنائهم موضعًا رضيا فإنه لم يرتحل عنه وسكن به مع البلديين. فإذا كان العطاء أو حضر الغزو ولحق بجنده فهم الذين كانوا سموا الشادة حينئذ.

قال أحمد بن موسى: وكان الخليفة يعقد لواءين لواءٌ غازيًا ولواءً مقيمًا وكان رزق الغازي بلوائه مائتي دينار. ويبقى المقيم بلا رزق ثلاثة أشهر ثم يدال بنظيره من أهله أو غيرهم.

وكان الغزاة من الشاميين مثل إخوة المعهود له أو بنيه أو بني عمه يرزقون عند انقضاء غزاته عشرة دنانير وكان يعقد المعقود له مع القائد يتكشف عمن غزا ويستحق العطاء فيعطى على قوله تكرمة له وكانت خدمتهم في العسكر واعتراضهم إليه ومن كان من الشاميين غازيًا من غير بيوتات العقد ارتزق خمسة دنانير عند انقضاء الغزو.

ولم يكن يعطى أحدٌ من البلديين شيئًا غير المعقود له وكان البلديون أيضًا يعقد لهم لواءان لواء غاز ولواء مقيم وكان يرتزق الغازي

مائة دينار وازنة وكان يعقد لغيره إلى ستة أشهر ثم يدال بنظيره من غيرهم ولم يكن الديوان والكتبة إلا في الشاميين خاصة وكانوا أحرارًا من العشر معدين للغزو ولا يلزمهم إلا المقاطعة على أموال الروم التي كانت بأيديهم وكان العرب من البلديين يؤدون العشر مع سائر أهل البلد وكان أهل بيوتاتٍ منهم يغزون كما يغزو الشاميون بلا عطاء فيصيرهم إلى ما تقدم ذكره.

وإنما كان يكتب أهل البلد في الغزو وكان الخليفة يخرج عسكرين إلى ناحيتين فيستنزلهم وكانت طائفةٌ ثالثة يسمون النظرا من الشاميين والبلديين كانوا يغزون كما يغزو أهل البلد من الفريقين وقد بينا نبدة من أحوال هؤلاء العرب.

والاستقصاء يخرج كتابنا عن غرضه. والإحاطة لله سبحانه.

* * *

ما ينسب إلى هذه الكورة من الأقاليم التي نزلها العرب بخارج غرناطة وما يتصل بها من العمالة فيما اشتمل عليه خارج المدينة. من القرى والجنات والجهات.

قال المؤلف رحمه الله:

ويحف بسور هذه المدينة المعصومة بدفاع الله تعالى البساتين العريضة المستخلصة والأدواح الملتفة فيصير سورها من خلف ذلك كأنه من دون سياج كثيفة تلوح نجوم الشرفات أثناء خضرايه ولذلك ما قلت فيه في بعض الأغراض: بلد يحف به الرياض كأنه وجهٌ جميل والرياض عذاره وكأنما واديه معصم غادةٍ ومن الجسور المحكمات سواره فليس تعرى عن جنباته من الكروم والجنات جهة إلا مالا عبرة به مقدار غلوة أما ما حازه السفل من جوفيه فهي عظيمة الخطر متناهية القيم يضيق جده من عدا أهل الملك عن الوفاء بأثمانها منها ما يغل في السنة الواحدة نحو الألف من الذهب قد غصت الدكاكين بالخضر الناعمة والفواكه الطيبة والثمر المدخرة يختص منها بمستخلص السلطان المرور طوقًا على ترائب بلده ما بينهن منية منها الجنة المعروفة بفدان الميسة والجنة المعروفة بفادان عصام والجنة المعروفة بالمعروي والجنة المنسوبة إلى قداح بن سحنون والجنة المنسوبة لابن المؤذن والجنة المنسوبة لابن كامل وجنة النخلة العليا وجنة النخلة السفلى وجنة ابن عمران والجنة التي إلى نافع والجرف الذي ينسب إلى مقبل وجنة العرض وجنة الحفرة وجنة الجرف ومدرج نجد ومدرج السبيكة وجنة العريف: كلها لا نظير لها في الحسن والدمانة والربيع

وطيب التربة وغرقد السقيا والتفاف الأشجار واستجادة الأجناس إلى ما يجاورها ويتخللها مما يختص بالأحباس الموقفة والجنات المتملكة وما يتصل بها بوادي سنجيل ما يقيد الطرف ويعجز الوصف قد متلت منها على الأنهار المتدافعة العباب المنارة والقباب واختصت من أشجار العاريات ذات العصير الثاني بهذا الصقع ما قصرت عنه الأقطار.

وهذا الوادي من محاسن هذه الحضرة ماؤه رقراق من ذوب الثلج ومجاجة الجليد وممره على حصىً جوهرية بالنبات والظلال محفوفة يأتي من قبلة علام البلد إلى غربه فيمر بين القصور النجدية ذوات المناصب الرفيعة والأعلام الماثلة.

ولأهل الحضرة بهذه الجنات كلفٌ ولذوي البطالة فوق نهره أريك من دمث الرمل وحجال من ملتف الدوح وكان بها سطر من شجر الحور تنسب إلى مامل أحد خدام الدولة الباديسية قال أبو الحجاج يوسف بن سعيد بن حسان: أحن إلى غرناطة كلما هفت نسيم الصبا تهدي الجوى وتشوق سقى الله من غرناطة كل منهل بمنهل سحبٍ ماؤهن هريق ديارٌ يدور الحسن بين خيامها وأرضٌ لها قلب الشجى مشوق أغرناطة العليا بالله خبري أللهائم الباكي إليك طريق وما شاقني إلى نضارة منظر وبهجة وادٍ للعيون تروق تأمل إذا أملت حوز مؤملٍ

ومد من الحمرا عليك شقيق وأعلام نجدٍ والسبيكة قد علت وللشفق الأعلى تلوح بروق وقد سلّ شنيلٌ فرندًا مهندا نضى فوق در ذر فيه عقيق إذا نم منه طيب نشر أراكه أراك فتيت المسك وهو فتيق ومهما بكى جفن الغمام تبسمت ثغور أقاحٍ للرياض أنيق.

ولقد ولعت الشعراء بوصف هذا الوادي وتغالت الغالات فيه في تفضيله على النيل بزيادة الشين وهو ألفٌ من العدد فكأنه نيلٌ بألفٍ ضعفٍ على عادة متناهي الخيال الشعري في مثل ولقد ألغزت فيه لشيخنا أبي الحسن بن الجياب رحمه الله وقد نظم في المعنى المذكور ما عظم له استطرابه وهو: ما اسمٌ إذا زدته ألفًا من العدد أفاد معناه لم ينقص ولم يزد وإنما ائتلفا من بعد ما اختلفا معنى بشينٍ ومن نزرٍ ومن بلدٍ ثم يتصل بالحسن العادي البديع وهو على قسمين خمسٌ من محكم الكدان في نهاية الإبداع والإحكام يتصل به بناءٌ قديم محكم ويستقبل الملعب العيدي ما بين ذنابي الجسر إلى جدار الرابطة وملعب بديع الشكل عن يمينه جناحٌ بديع عن ميدانه عدوات النهر وعن يساره الجنات ويفضي بعد انتهائه إلى الرابطة إلى باب القصر المنسوب إلى السيد وسيأتي ذكره ويرتفع من هذا النهر الزلال جداول تدور بها أعداد من الأرحى لا نظير لها استعدادًا وإفادة.

وصف مدينة غرناطة:

بعض ما قيل في رياضها من الشعر وتركب ما ارتفع من هذه المدينة من جهاتها الثلاث الكروم البديعة طوقًا مرقومًا يتصل بما وراءها من الجبال فتعم الربى والوهاد وتشمل الغور والنجد إلا ما اختص منها بالسبل الأفيح متصلا بشرقي باب إلبيرة إلى الخندق العميق وهو المسمى بالمشايخ بسيط جليل وجوٌ عريض تغمي على العد أمراجه ومصانيعه تلوح مبانيها ناجمةً بين الثمار والزيتون وسائر ذوات الفواكه من اللوز والإجاص والكمثري محدقة من الكروم المسحة والرياحين الملتفة ببحور طامية تأتي البقعة الماء ففيها كثير من البساتين والرياض والحصون والأملاك المتصلة السكنى على الفصول.

وأما ما استند إلى الجبل فيتصل به البيازير في سفح الجبل المتصل بالكدية ابن سعد متصلا بالكدية المبصلة المنسوبة لعين الدمع منعطفةً على عين القبلة متصلةً بجبل الفخار ناهلةً في غمر الماء المجلوب على ذلك السمت الماء والإشراف على الأرجاء ففيها القصور المحروسة والمنارة المعمورة والدور العالية والمباني القصبية والرياحين النضيرة قد فض فيها أهل البطالة من أولى الحبرة الأكياس وأرخصوا على النفقة عليها غالي النشب تتنازع في ذلك غير الخادمين من خدام الدولة على مر الأيام حتى أصبحت نادرة الأرض والمثل في الحسن.

ولهذه البقعة ذكرٌ يجري في المنظومات على ألسنة البلغاء من ساكنيها وزوارها فمن أحسن ما مر من ذلك قول شيخنا أبي البركات:
ألا قل لعين الدمع يهمي بمقتلي لفرقة عين الدمع وقفًا على الدم
وذكرته في قصيدة فقلت:

يا عهد عين الدمع كم من لؤلؤ ... للدمع جاد به عساك تعود
تسري نواسمك اللدان بليلة ... فيهزني شوقٌ إليك شديد

وقلت من أبيات تكتب في قبةٍ بقصري الذي اخترعته بها:

إذا كان عين الدمع عيناً حقيقة ... فإنسانها ما نحن فيه ولادع
فدام لخيل الأنس واللهو ملعباً ... ولا زال مثواه المنعم مرتع
تود الثريا أن تكون له ثرًى ... وتمدحه الشعرى وتحرسه المع

والأقاويل في ذلك أكثر من أن يحاط بها كثرة، وما سوى هذه الجهة فغير لاحق بهذه الرتبة، مما معوله على محض الفائدة وصريح العائدة. وتذهب هذه الغروس المغروسة قبلةً، ثم يفيض تيارها إلى غرب المدينة، وقد تركت بها الجبال الشاهقة، والسفوح العريضة، والبطون الممتدة، والأغوار الخائفة، مكللة بالأعناب، غاصة بالأدواح، متزاحمة بالبيوت والأبراج، بلغ إلى هذا العهد عددها في ديوان الخرص، إلى ما يناهز أربعة عشر ألفاً، نقلت ذلك من خط من يشار إليه في هذه الوظيفة، وقاها الله مضرة السنين، ودفع عنها عباب القوم الظالمين، وعدوان الكافرين.

* * *

قرى مدينة غرناطة وضياعها وجناتها وأعيان دورها

ويحيط بما خلف السور من المنى، والجنات، في سهل المدينة، العقار الثمين، العظيم الفائدة، المتعاقبة الغلة، الذي لا يعرف الجمام، ولا يفارق الزرع من الأرض البيضاء، ينتهي ثمن المرجع منها العلي، إلى خمسة وعشرين ديناراً من الذهب العين، لهذا العهد فيه مستخلص السلطان، ما يضيق عنه نطاق القيمة، ذرعاً وغبطة وانتظاماً، يرجع إلى دور ناجمة، وبروج سامية، وبيادر فسيحة، ومصابٍ للحمايم والدواجن ماثلة، منها في طوق البلد، وحمى سورها، جملةٌ، كالدار المنسوبة إلى هذيل، والدار المنسوبة إلى أم مرضى، والدار البيضاء، والدار المنسوبة إلى السنينات، والدار المعروفة بنبلة ووتر، وبالمرج ما يساير جرية النهر كقرية وكروبها حصن خريز، وبستان وبشر عيون، والدار المنسوبة إلى خلف، وعين الأبراج، والحش المنسوب إلى الصحاب، وقرية رومة وبها حصنٌ وبستان، والدار المنسوبة إلى العطشى، وبها حصن، والدار المنسوبة لابن جزي، والحش المنسوب لأبي علي، وقرية ناجرة، ومنها فضل بن مسلمة الحسنى، وبها حصن، وحوله ربض، فيه من الناس أمة، وقرية سنيانة وفيها حصن، وقرية أشكر، وقريتي بيبش وواط، وبهما حصنان، وقرية واط عبد الملك بن حبيب. وفي هذه القرى الجمل الضخمة من الرجال، والفحول من الحيوان الحارث لآثار

الأرض، وعلاج الفلاحة، وفي كثير منها الأرحى والمساجد. وما سوى هذه من القرى، المستخلص من فضلة الإقطاع، وقصرت به الشهرة عن هذا النمط، فكثيرٌ.

ويتخلل هذا المتاع الغبيط الذي هو لباب الفلاحة، وغير هذه المدرة الطيبة، سائر القرى التي بأيدي الرعية، مجاورة لهذه الحدود، وبنات لهذه الأمهات. منها ما انبسط وتمدد، فاشترك فيه الألوف من الخلق، وتعددت منه الأشكال، ونحن نوقع الاسم منه على البقعة من غير ملاحظة للتعدد. ومنها ما انفرد بمالك واثنين فصاعداً، وهو قليل، وتنيف أسماؤها على ثلاث مائة قرية ما عدا ما يجاور الحضرة من كثير من قرى الإقليم أو ما استضافته حدود الحصون المجاورة.

فمن ذلك حوز الساعدين وفيه القرى، وحوز وتر ومنها إبراهيم بن زيد المحاربي، وقرية قلجار، وقرية ياجر الشاميين، وقرية ياجر البلديين، وقرية قشتالة، ومنها قاسم بن أمام من أصحاب سحنون، ونزل فيها جده عطية بن خالد المحاربي، وقرية أججر، وقرية أرملة الكبرى، وقرية أرملة الصغرى، وقرية رقاق وهمدان، منها الغريب بن يزيد الشمر جد بني أضحى، وقرية الغيضون، وقرية لسانة، وحارة الجامع، وحارة الفراق، وقرية غرليانة، وحش البكر، وغدير الصغرى وغدير الكبرى، من إقليم البلاط، منها يربوع بن عبد الجليل، ونزل بها

جده يربوع بن عبد الملك بن حبيب، وقرية قولر، وقرية جرليانة، وقرية حارة عمروس، وحش الطلم، وقرية المطار، وقرية الصرمورتة، وقرية بلسانة، وقرية الحبشان، وقرية الشوش، وقرية عرتقة، وقرية جيجانة، وقرية السيجة، وقنب قيس، وقرية برذنار، وقرية دوير تارش، وقرية آقلة، وقرية أحجر، وقرية تجرجر، وقرية والة، وقرية أنقر، وقرية الغروم، وقرية دار وهدان، وقرية بيرة، وقرية القصيبة، وقرية أنطس، وقرية فنتيلان، وقرية سنبودة، وحش زنجيل، وقرية أشتر، وقرية غسان، منها مطر بن عيسى بن الليث، وقرية شوذر، وقرية سنتشر، وقرية ابن ناطح، وقرية الملاحة، ومنها محمد بن عبد الواحد الغافقي أبو القاسم الملاحي، وقرية القمور، منها أصبغ بن مطرف، وقرية نفجر وغرناطة، وقرية بيرة وبها مسجد قراءة ابن حبيب، وقرية قولجر، منها سهل بن مالك، وقرية شور، منها محمد بن هانئ الأزدي الشاعر المفلق، ومحمد بن سهل جد هذا البيت، بني سهل بن مالك، وقرية بليانة، وقرية برقلش، وقرية ضوجر، وقرية البلوط، وقرية أنتيانة، وقرية مرسانة، وقرية الدوير، وقرية ضوجر، وقرية البلوط، وقرية الشلان، وقرية أنتيانة، وقرية مرسانة، وقرية الدوير، وقرية الشلان، وقرية طغنر، منها الطغنري صاحب الفلاحة، وقرية حش الدجاج، وقرية حش نوح، وقرية حش خليفة، وحش الكوباني، وحش المعيشة، وحش السلسلة، وقرية الطرف، وقرية إلبيرة، وقرية الشكروجة، ومنها عيسى بن محمد

بن أبي زمنين، وعين الحورة، وحش البومل، وقرية بلومال، وقرية رق المخيض، وقرية الغيضون الحورة، وقرية أشقطمر، وقرية الديموس الكبرى، وقرية الديموس الصغرى، وقرية دار الغازي، وقرية سويدة، وحش نصيرة، وقرية الركن، وقرية ألفنت، ومنها صخر بن أبان، وقرية الكدية، وقرية لاقش، وقرية قربسانة، وقرية برسانة برياط، وقرية الولجة، وقرية ماس، وحش علي، وحش بني الرسيلية، وحش رقيب، وحش البلوطة، وحش الرواس، وحش مرزوق، وقرية قبالة، وقرية نبالة، وقرية العيران، وبرج هلال، وقرية قلتيش وقرية القنار، وقرية أربل، وقرية بربل، وقرية قرباسة، وقرية أشكن، وقرية قلنبيرة، وقرية سعدى، وقرية قلقاجج، وقرية فتن، وقرية مرنيط، وقرية ددشطر، وقرية شمانس، وقرية أرنالش، وقرية وابشر، وقرية ققلولش، وقرية النبيل، وقرية الفخار، وقرية القصر، ومنها محمد بن أحمد بن مرعياز الهلالي، وقرية بشر، وقرية بنوط، وقرية كورة، وقرية لص، وقرية بيش وقرية قنتر، وقرية دور، وقرية قلنقر، وقرية غلجر، ومنها هاشم بن عبد العظيم بن يزيد الخولاني، وقرية ذرذر، وقرية ولجر، وقرية قنالش، وقرية إبتايلس، وقرية سج، وقرية منشتال وقرية الوطا، وقرية وابي، وقرية قريش، وقرية الزاوية.

وقد ذكرنا أن أكثر هذه القرى أمصار، فيها ما يناهز خمسين خطبة، تنصب فيها لله المناير، وترفع الأيدي، وتتوجه الوجوه. وجملة المراجع العلمية المرتفعة فيها، في الأزمنة، في العام بتقريب، ومعظمها السقي الغبيط السمين، العالي، ما يتاألف ثنتان وستون ألفا، وينضاف إلى ذلك مراجع الأملاك السلطانية، ومواضع أحباس المساجد، وسبل الخير، ما ينيف على ما ذكر، فيكون الجميع باحتياط، خمسمائة ألف وستون ألفا، والمستفاد فيها من الطعام المختلف الحبوب للجانب السلطاني، ثلاثمائة ألف قدح ويزيد، ويشتمل سورها وما وراءه من الأرحاء الطاحنة بالماء، على ما ينيف على مائة وثلاثين رحى، الحفها الله جناح الأمنة، ولا قطع عنها مادة الرحمة، بفضله وكرمه.

* * *

صفات أهل غرناطة

ومظاهرهم وأنسابهم وأزيائهم وطرق معيشتهم وصنوف نقدهم ووصف نسائهم

وقد فرغنا من ذكر رسوم هذا القطر ومعاهده، وفرغنا من تصويره وتشكيله، وذكر قراه وأجناته، وقصوره ومتنزهاته، فنحن الآن نذكر بعضا من سير أهله، وأخلاقهم، وغير ذلك من أحوالهم بإجمال واختصار، فنقول: أحوال هذا القطر في الدين وصلاح العقائد،

أحوال سنية، والنحل فيهم معروفة، فمذاهبهم على مذهب مالك بن أنس إمام دار الهجرة جارية، وطاعتهم للأمراء محكمة، وأخلاقهم في احتمال المعاون الجبائية جميلة، وصورهم حسنة، وأنوفهم معتدلة غير حادة، وشعورهم سودٌ مرسلة، وقدودهم متوسطة معتدلة، إلى القصر، وألوانهم زهر مشربة بحمرة، وألسنتهم فصيحة عربية، يتخللها غربٌ كثير، وتغلب عليهم الإمالة، وأخلاقهم أبية في معاني المنازعات، وأنسابهم عربية، وفيهم من البربر والمهاجرة كثير، ولباسهم الغالب على طرقاتهم الفاشي بينهم، الملف المصبوغ شتاء، وتتفاضل أجناس البز بتفاضل الجدة، والمقدار، والكتان والحرير، والقطن، والمرعزي، والأردية الإفريقية، والمقاطع التونسية، والمآزر المشفوعة صيفاً، فتبصرهم في المساجد، أيام الجمع، كأنهم الأزهار المفتحة، في البطاح الكريمة، تحت الأهوية المعتدلة.

وأنسابهم حسبما يظهر من الإسترعات، والبيعات السلطانية والإجازات، عربيةٌ: يكثر فيها القرشي، والفهري، والأموي، والأمي، والأنصاري، والأوسي، والخزرجي، والقحطاني، والحميري، والمخزومي، والتنوخي، والغساني، والأزدي، والقيسي، والمعافري، والكناني، والتميمي، والهذلي، والبكري، والكلابي، والنمري، واليعمري، والمازني، والثقفي، والسلمي، والفزاري، والباهلي، والعبسي، والعنسي،

والعذري، والحجحي، والضبي، والسكوني، والتيمي، والعبشمي، والمري، والعقيلي، والفهمي، والصريحي، والجزلي، والقشيري، والكلبي، والقضاعي، والأصبحي، والهواري، والرعيني، واليحصبي، والتجيبي، والصدفي، والحضرمي، والحمي، والجذامي، والسلولي، والحكمي، والهمذاني، والمذحجي، والخشني، والبلوي، والجهني، والمزني، والطائي، والغافقي، والأسدي، والأشجعي، والعاملي، والخولاني، والأيادي، والليثي، والخثعمي، والسكسكي، والزبيدي، والتغلبي، والثعلبي، والكلاعي، والدوسي، والحواري، والسلماني، هذا ويرد كثير في شهادتهم، ويقل من ذلك السلماني نسباً، وكالدوسي، والحواري، والزبيدي، ويكثر فيهم، كالأنصاري، والحميدي، والجذامي، والقيسي، والغساني، وكفى بهذا شاهدا على الأصالة، ودليلا على العروبة.

وجندهم صنفان، أندلسي وبربري، والأندلس منها يقودهم رئيسٌ من القرابة أو حصى، من شيوخ الممالك. وزيهم في القديم شبه زي أقتالهم، وأضدادهم، من جيرانهم الفرنج، إسباغ الدروع، وتعليق الترسة، وحفا البيضات، واتخاذ عراض الأسنة، وبشاعة قرابيس السروج، واستركاب حملة الرايات خلفه، كلٌ منهم بصفةٍ تختص بسلاحه، وشهرةٍ يعرف بها. ثم عدلوا الآن عن هذا الذي ذكرنا، إلى الجواشن المختصرة، والبيضات المرهفات، والسروج العربية، والبيت

اللمطية، والأسل العطفية. والبربري منه، يرجع إلى قبائله المرينية، والزناتية، والتجانية، والمغراوية والعجيسية، والعرب المغربية إلى أقطاب ورؤوس، يرجع أمرهم إلى رئيس، على رؤسائهم، وقطب لعرفائهم، من كبار القبائل المرينية، يمت إلى ملك المغرب بنسب.

والعمائم تقل في زي أهل هذه الحضرة، إلا ما شاد في شيوخهم وقضاتهم وعلمائهم، والجند العربي منهم. وسلاح جمهورهم العصي الطويلة، المثناة بعصى صغارٍ ذوات عري في أواسطها، تدفع بالأنامل عند قذفها تسمى بالأمداس، وقسى الإفرنجة يحملون على التدريب بها على الأيام، ومبانيهم متوسطة، وأعيادهم حسنة، مائلة إلى الاقتصاد، والغنى بمدينتهم فاشٍ، حتى في الدكاكين التي تجمع صنائعها، كثيراً من الأحداث، كالخفافين ومثلهم.

وقوتهم الغالب، البر الطيب، عامة العام، وربما اقتات في فصل الشتاء الضعفة والبوادي والفعلة في الفلاحة، الذرة العربية، أمثل أصناف القطاني الطيبة. وفواكههم اليابسة عامة العام، متعددةٌ، يدخرون العنب سليما من الفساد، إلى شطر العام، إلى غير ذلك من التين، والزبيب، والتفاح، والرمان، والقسطل، والبلوط، والجوز، واللوز، إلى غير ذلك مما لا ينفد، ولا ينقطع مدده إلا في الفصل الذي يزهد في استعماله.

وصرفهم فضة خالصةٌ، وذهبٌ إبريزٌ طيب محفوظ، ودرهمٌ مربع الشكل، من وزن المهدي القائم بدولة الموحدين، في الأوقية منه سبعون درهما، يختلف الكتب فيه. فعلى عهدنا، في شق، "لا إله إلا الله، محمد رسول الله" وفي شق آخر "لا غالب إلا الله، غرناطة". ونصفه وهو القيراط، في شق، "الحمد لله رب العالمين"، وفي شق، وما النصر إلا من عند الله. ونصفه وهو الربع، في شق، "هدى الله هو الهدى" وفي شق العاقبة للتقوى.

ودينارهم في الأوقية منه، ستة دنانير وثلثا دينار، وفي الدينار الواحد ثمن أوقية وخمس ثمن أوقية، وفي شق منه، قل اللهم مالك الملك بيدك الخير، ويستدير به قوله تعالى "إلهكم إلهٌ واحدٌ، لا إله إلا هو الرحمن الرحيم". وفي شق، الأمير عبد الله يوسف، بن أمير المسلمين أبي الحجاج، بن أمير المسلمين أبي الوليد إسماعيل بن نصر، أيد الله أمره. ويستدير به، شعار هؤلاء الأمراء، لا غالب إلا الله. ولتاريخ تمام هذا الكتاب، في وجه، "يا أيها الذين آمنوا اصبروا وصابروا ورابطوا واتقوا الله لعلكم تفلحون". ويستدير به، لا غالب إلا الله. وفي وجه الأمير عبد الله الغني بالله، محمد بن يوسف بن إسماعيل بن نصر، أيده الله وأعانه. ويستدير بربع، بمدينة غرناطة حرسها الله.

وعادة أهل هذه المدينة، الانتقال إلى حلل العصير أوان إدراكه، بما تشتمل عليه دورهم، والبروز إلى الفحوص، بأولادهم، معولين في ذلك على شهامتهم وأسلحتهم، وعلى كثب دورهم، واتصال أمصارهم بحدود أرضه. وحليهم في القلائد، والدمالج، والشنوف، والخلاخل الذهب الخالص، إلى هذا العهد، في أولى الجدة، واللجين في كثير من آلات الرجلين، فيمن عداهم، والأحجار النفيسة من الياقوت، والزبرجد والزمرد ونفيس الجوهر، كثير ممن ترتفع طبقاتهم المستندة إلى ظل دولة، أو أصالةٍ معروفة موفرة.

وحريمهم، حريم جميل، موصوف بالسحر، وتنعم الجسوم، واسترسال الشعور، ونقاء الثغور، وطيب النشر، وخفة الحركات، ونبل الكلام، وحسن المحاورة، إلا أن الطول يندر فيهن. وقد بلغن من التفنن في الزينة لهذا العهد، والمظاهرة بين المصبغات، والتنفيس بالذهبيات والديباجيات، والتماجن في أشكال الحلي، إلى غاية نسأل الله أن يغض عنهن فيها، عين الدهر، ويكفكف الخطب، ولا يجعلها من قبيل الابتلاء والفتنة، وأن يعامل جميع من بها بستره، ولا يسلبهم خفي لطفه، بعزته وقدرته.

فصل فيمن تداول هذه المدينة

من لدن أصبحت دار إمارة باختصار واقتصار

قال المؤلف: أول من سكن هذه المدينة، سكنى استبداد، وصيرها دار ملكة ومقر أمره،الحاجب، المنصور أبو مثنى زاوي بن زيري بن مناد لما تغلب جيش البربر، مع أميرهم سليمان بن الحكم على قرطبة، واستولى على كثير من كور الأندلس، عام ثلاثة وأربعمائة فما بعدها، وظهر على طوائف الأندلس، واشتهر أمره، وبعد صيته. ثم اجتاز البحر إلى بلد قومه بإفريقية، بعد أن ملك غرناطة سبع سنين، واستخلف ابن أخيه حبوس بن ماكسن، وكان حازماً داهية، فتوسع النظر إلى أن مات سنة تسع وعشرين وأربعمائة. وولي بعده حفيده عبد الله بن بلكين بن باديس، إلى أن خلع عام ثلاثة وثمانين وأربعمائة، وتصير أمرها إلى أبي يعقوب يوسف بن تاشفين ملك لمتونة عند تملكه الأندلس، ثم إلى ولد علي بن يوسف. وتنوب إمارتها جملةٌ من أبناء الأمراء اللمتونيين وقرابتهم كالأمير أبي الحسن علي بن الحاج وأخيه موسى، والأمير أبي زكريا يحيى بن أبي بكر بن إبراهيم، والأمير أبي الطاهر تميم، والأمير أبي محمد مزدلي والأمير أبي بكر بن أبي محمد، وأبي طلحة الزبير ابن عمر، وعثمان بن بدر اللمتوني، إلى أن انقرض أمرهم عام أربعين وخمسمائة.

وتصير الأمر للموحدين، وإلى ملكهم أبي محمد عبد المؤمن بن علي، فتناوبها جملةٌ من بنيه وقرابته، كالسيد أبي عثمان بن الخليفة، والسيد أبي إسحاق ابن الخليفة، والسيد أبي إبراهيم بن الخليفة، والسيد أبي محمد بن الخليفة، والسيد أبي عبد الله، إلى أن انقرض منها أمر الموحدين.

وتملكها المتوكل على الله، أمير المؤمنين، أبو عبد الله محمد يوسف بن هود، في عام ستة وعشرين وستمائة، ثم لم ينشب أن تملكها أمير المسلمين الغالب بالله محمد بن يوسف بن نصر الخزرجي، جد هؤلاء الأمراء الكرام موالينا، رحم الله من درج منهم، وأعان من خلفه، إلى أن توفي عام أحدٍ وسبعين وستمائة.

ثم ولي الأمر بعده ولده وسميه محمد بن محمد فقام بها أحمد قيام، وتوفي عام إحدى وسبعمائة. ثم ولي بعده سميه محمد إلى أن خلع يوم عيد الفطر من عام ثمانية وسبعمائة، وتوفي عام أحد عشر وسبعمائة في ثالث شوال منه. ثم ولي بعده أخوه نصر بن مولانا أمير المسلمين أبي عبد الله، فأرتب أمره، وطلب الملك اللاحق به مولانا أمير المسلمين أبو الوليد إسماعيل بن فرج، فغلب على الإمارة، ثاني عشر ذي القعدة من عام ثلاثة عشر وسبعمائة، وانتقل نصر إلى وادي آش مخلوعاً، موادعاً بها إلى أن مات عام اثنين وعشرين وسبعمائة. وتمادى ملك

السلطان أمير المسلمين أبي الوليد إلى السادس والعشرين من رجب عام خمسة وعشرين وسبعمائة، ووثب عليه بعض قرابته فقتله، وعوجل بالقتل مع من حضر منهم.

وتولى الملك بعده ولده محمد، واستمر سلطانه إلى ذي الحجة من عام أربعة وثلاثين وسبعمائة، وقتل بظاهر جبل الفتح. وولى بعده أخوه مولانا السلطان أبو الحجاج لباب هذا البيت، وواسطة هذا العقد، وطراز هذه الحلية، ثم اغتاله، ممرور من أخابيث السوقة، قيضه الله إلى شهادته، وجعله سبباً لسعادته، فأكب عليه في الركعة الآخرة من ركعتي عيد الفطر، بين يدي المحراب، خاشعاً، ضارعاً، في الحال الذي أقرب ما يكون العبد من ربه، وهو ساجدٌ، وضربه بخنجر مهيء للفتك به، في مثل ذلك الوقت، كان، زعموا، يحاول شخذه منذ زمان، ضربةً واحدةً، على الجانب الأيسر من ظهره، في ناحية قلبه، فقضى عليه، وبودر به فقتل.

وولى الأمر بعده محمد، ولده اكبر بنيه، وأفضل ذويه، خلقاً وخلقاً وحياء وجوداً، ووقاراً وسلامة وخيرية، ودافع دولته من لا يعبأ الله به، ثم تدارك الأمر سبحانه، وقد أشفى، ودافع وكفى، بما يأتي في محله إن شاء الله. وهو أمير المسلمين لهذا العهد، متع الله به، وأدام

مدته، وكتب سعادته، وأطلق بالخير يده، وجعله بمراسيم الشريعة من العاملين، ولسلطان يوم الدين من الخائفين. المراقبين، بفضله.

وقد أتينا بما أمكن من التعريف بأحوال هذه الحضرة على اختصار. ويأتي في أثناء التعريف برجالها كثيرٌ من تفصيل ما أجمل، وتتميم ما بدأ وإيضاح ما خفي، بحول الله تعالى.

القسم الثاني

في حلي الزائر والقاطن والمتحرك والساكن

أحمد بن خلف بن عبد الملك الغساني القليعي:

من أهل غرناطة يكنى أبا جعفر، من جلة أعيانها، تنسب إليه الساقية الكبرى المجاورة لطوق الحضرة إلى إلبيرة، وما والاها.. قال ابن الصيرفي: كان الفقيه أبو جفعر القليعي، من أهل غرناطة، فريد عصره، وقريع دهره، في الخير والعلم والتلاوة، وله حزب من الليل، وكان سريع الدمعة، كثير الرواية، وهو المشار إليه في كل نازلة، وله العقد والحل والتقدم والسابقة، مع منة في جلائل الأمور، والنهضة بالأعباء وسمو الهمة.

قال كان باديس بن حبوس أمير بلده ينفرس فيه أن ملك دولته، ينقرض على يديه، فكان ينصب لشأنه أكلباً، ويتملط بسيفه إلى قتله، فحماه الله منه بالعلم، وغل يده، وأغمد سيفه، ليقضي الله أمراً كان مفعولا.

مشيخته

روي عن أبي عمر بن القطان، وأبي عبد الله بن عتاب، وأبي زكريا القليعي، وأبي مروان بن سراج، وكان ثقةً صدوقاً، أخذ عنه الناس.

محنته:

ولما أجاز أمير لمتونة يوسف بن تاشفين البحر مستدعى إلى نصر المسلمين، ثاني حركاته إلى الأندلس، ونازل حصن أليط، وسارع ملوك الطوائف إلى المسير في جملته، كان ممن وصل إليه الأمير عبد الله بن بلكين، بن باديس صاحب غرناطة، ووصل صحبته الوزير أبو جعفر بن القليعي، لرغبته في الأجر مع شهرة مكانه، وعلو منصبه، ولنهوض نظرائه، من زعماء الأقطار، إلى هذا الغرض، وكان مضرب خيام القليعي قريباً من مضرب حفيد باديس، ولمنزلته عند الأمير يوسف بن تاشفين، وله عليها الحفوف وله به استبداد، وانفرادٌ كثير، وترددٌ كثير، حتى نفى بذلك حفيد باديس، وأنهم عنيه. قال المؤرخ، وكيفما دارت الحال، فلم يخل من نصحٍ لله ولأمير المسلمين.

قلت: حفيد باديس كان أدرى بدائه، قصر الله خطانا من مدارك الشرور. فلما صدر حفيد باديس إلى غرناطة، استحضره ونجهه، وقام من مجلسه مغضباً، وتعلقت به الخدمة، وحفت به الوزعة والحاشية. وهمو بضربه، إلا أن أم عبد الله تطارحت على ابنها في استحيائه، فأمر بتخليصه، وسجنه في بعض بيوت القصر، فاقبل فيه على العبادة والدعاء والتلاوة، وكان جهير الصوت، حسن التلاوة، فارتج القصر، وسكنت لاستماعه الأصوات، وهدأت له الحركات، واقشعرت

الجلود. وخافت أم عبد الله على ولدها، عقاباً من الله بسببه، فلاطفته حتى حل عقاله، وأطلقه من سجنه. ولما تخلص أعدها غنيمةً. وكان جزلاً، قوي القلب، شديد الجزم، فقال الصيد بغراب أكيس، فاتخذ الليل جملاً، فطلع له الصباح بقلعة يحصب، وهو لنظر ابن عباد، وحث منها السير إلى قرطبة، فخاطب منها يوسف بن تاشفين بملىء فيه، بما حركه وأطعمه، فكان من حركته إلى الأندلس، وخلع عبد الله بن بلكين من غرناطة، واستيلائه عليها، ما يرد في اسم عبد الله وفي اسم يوسف بن تاشفين إن شاء الله. وبدا لحفيد باديس في أمر أبي جعر القليعي، ورأى أنه أضاع الحزم في إطلاقه فبحث عنه من الغد، وتقصت عنه البلدة، فلم يقع له خبر، إلى أن اتصل به خبر نجاته، ولحاقه بمأمنه. فرجع باللائمة على أمه، ولات حين مندم. ولم يزل أبو جعفر مدته في دول الملوك، من لمتونة، معروف الحق، بعيد الصيت والذكر، صدر الحضرة، والمخصوص بعلو المرتبة إلى حين وفاته.

إبراهيم بن محمد بن مفرج بن همشك المتأمر، رومي الأصل.

أوليته

مفرج أو همشك، من أجداده، نصراني أسلم على يدي أحد ملوك بني هود بسرقسطة، نزح إليهم، وكان مقطوع إحدى الأذنين، فكان النصارى إذا رأوه في القتال عرفوه، وقالوا هامشك، معناه ترى

المقطوع الأذن، إذ ها عندهم قريب مما هي في اللغة العربي، والمشك المقطوع الأذنين في لغتهم.

نباهته وظهوره

ولما خرج بنو هود عن سرقسطة، نشأ تحت خمول، إلا أنه شهم متحرك، خدم بعض الموحدين في الصيد، وتوسل بدلالة الأرض، ثم نزع إلى ملك قشتالة واستقر مع النصارى، ثم انصرف إلى بقية اللمتونيين بالأندلس بعد شفاعة وإظهار توبة. ولما ولي يحيى بن غانية قرطبة، إرتسم لديه برسمه. ثم كانت الفتنة عام تسعة وثلاثين وثار ابن حمدين بقرطبة، وتسمى بأمير المؤمنين، فبعثه رسولا ثقة بكفايته ودربته وعجمة لسانه، لمحاولة الصلح بينه وبين ابن حمدين، فأغنى ونبه قدره، ثم غلى مرجل الفتنة وكثر الثوار بالأندلس، فاتصل بالأمير ابن عياض بالشرق وغيره، إلى أن تمكن له الامتزاز بحصن شفوبش، ثم تغلب على مدينه شقورة وتملكها وهي ما هي من النعمة، فغلظ أمره، وساوى محمد بن مردنيش أمير الشرق وداخله، حتى عقد معه صهراً على ابنته، فاتصلت له الرياسة والإمارة. وكان يعد سيفاً لصهره المذكور، مسلطاً على من عصاه، فقاد الجيوش، وافتتح البلاد إلى أن فسد ما بينهما، فتفاتنا وتقاطعا، وانحاز بما لديه من البلاد والمعاقل، وعد من ثوار الأندلس أولى الشوكة الحادة، والبأس الشديد، والشبا المرهوب.

وآثاره بعد انقباض دولته تشهد بما تأمل من ملك وسلف من الدولة والدار الآخرة خير لمن اتقى. قال ابن صفوان:

ودیار شکوى الزمان فتشك   حدثتنا عن عزة ابن همشك

حاله

قال محمد بن أيوب بن غالب، المدعو بابن حمامة: أبو إسحاق الرئيس، شجاع بهمة من البهم. كان رئيساً شجاعاً مقداماً شديد الحزم، سديد الرأي، عارفاً بتدبير الحرب، حمى الأنف، عظيم السطوة، مشهور الإقدام مرتكباً للعظيمة، قال بعض من عرف به من المؤرخين، وهو وإن كان قائد فرسان، هو حليف فتنه وعدوان، ولم يصحب قط متشرعاً، ولا نشأ في أصحابه من كان متورعاً، سلطه الله على الخلق، وأملى له فأضر بمن جاوره من أهل البلاد، وحبب إليه العيث في العباد.

سيرته

كان جباراً قاسياً، فظا غليظاً، شديد النكال، عظيم الجرأة والعبث بالخلق، بلغ من عيثه فيهم، إحراقهم بالنار، وقذفهم من الشواهق والأبراج، وإخراج الأعصاب والرباطات عن ظهورهم، عن أوتار القسي بزعمه، وضم أغصان الشجر العادي بعضها إلى بعض، وربط الإنسان بينها، ثم تسريحها، حتى يذهب كل غصن بحظه من

الأعضاء، ورآه بعض الصالحين في النوم بعد موته، وسأله ما فعل الله بك فأنشده:

من سره العيش في الدنيا بخلقة من ... يصور الخلق في الأرحام كيف يشا
فليصبر اليوم صبري تحت بطشته ... مغلـلا يمتطـي جمـر الغضـا فرشـا

شجاعته

زعموا أنه خرج من المواضع التي كانت لنصره متصيداً، وفي صحبته محاولو اللهو، وقارعو أوتار الغناء، في مائة من الفرسان، ونقاوة أصحابه، فما راعهم إلا خيل العدو هاجمه على غرة، في مائتي فارس ضعف عددهم، فقالوا العدو في مائتي فارس، فقال وإذا كنتم أنتم لمائة، وأنا لمائة، فنحن قدرهم، فعد نفسه بمائة. ثم استدعى قدحاً من شرابه، وصرف وجهه إلى المغني، وقال أعد لي تلك الأبيات، كان يغنيه بها فتعجبه:

يتلقـــى النـــدا بوجـــهٍ حـــي ... وصـــدور القنـــا بوجـــه وقـــاح
هكـــذا هكـــذا تكـــون المعـــالي ... طـرق الجـد غـير طـرق المـزاح

فغناه بها، واستقبل العدو، وحمل عليه بنفسه وأصحابه، حملة رجل واحد، فاستولت على العدو الهزيمة، وأتى على معظمهم القتل، ورجع غانماً إلى بلده. ثم ضربت الأيام، وعاود التصيد في موضعه ذلك، وأطلق بازه على حجلة، فأخذها وذهب ليذكيها، فلم يحضره

خنجر ذلك الغرض في الوقت، فبينما هو يلتمسه، إذ رأى نصلاً من نصال المعترك من بقايا يوم الهزيمة، فأخذه من التراب، وذبح به الطائر، ونزل واستدعى الشراب، وأمر المغني فغناه بيتي أبي الطيب:

تـذكرت مـا بـين العـذيب وبارقٍ مجـر عوالينـا ومجـرى السـوابق

وصـحبة قـوم يـذبحون قنيصـهم بفضلات ما قد كسروا في المفارق

وقد رأيت من يروي هذه الحكاية عن أمراء بني مردنيش، وعلى كل حال فهي من مستظرف الأخبار.

دخوله غرناطة

قالوا وفي سنة ست وخمسين وخمسمائة، في جمادى الأولى منها، قصد إبراهيم ابن همشك بجمعه مدينة غرناطة، وداخل طائفة من ناسها، وقد تشاغل الموحدون بما دهمهم من اختلاف الكلمة عليهم بالمغرب، وتوجه الوالي بغرناطة السيد أبي سعيد إلى العدوة، فاقتحمها ليلاً واعتصم الموحدون بقصبتها، فأجاز بهم بأنواع الحرب، ونصب عليهم المجانيق، ورمى فيها من ظفر به منهم وقتلهم بأنواع من القتل. وعندما اتصل الخبر بالسيد أبي سعيد، بادر إليها فأجاز البحر، والتف به السيد أبو محمد بن أبي حفص بجميع جيوش الموحدين والأندلس، ووصل الجميع إلى ظاهر غرناطة، وأصحر إليهم ابن همشك، وبرز منها، فالتقى الفريقان بمرج الرقاد من خارجها، ودارت الحرب بينهم،

فانهزم جيش الموحدين، واعترضت الفل تخوم الفدادين وجداول المياه التي تتخلل المرج، فاستولى عليهم القتل، وقتل في الوقيعة السيد أبو محمد، ولحق السيد أبو سعيد، بمالقة، وعاد ابن همشك إلى غرناطة فدخلها بجملةٍ من أسرى القوم، أفحش فيهم المثلة، بمرأى من إخوانهم المحصورين، واتصل الخبر بالخليفة بمراكش، وهو بمقربة سلا، قد فرغ من أمر عدوه، فجهز جيشاً، أصحبه السيد أبا يعقوب ولده، والشيخ أبا يوسف بن سليمان زعيم وقته، وداهية زمانه، فأجازوا البحر والتقوا بالسيد أبي سعيد بمالقة، وتتابع الجمع، والتف بهم من أهل الجهاد من المطوعة، واتصل منهم السير إلى قرية دلر من قرى غرناطة، وكان من استمرار الهزيمة على ابن همشك الذي أمده بنفسه وجيشه، من نصارى وغيرهم، ما يأتي ذكره عند اسم ابن مردنيش في الموحدين، في حرف الميم بحول الله تعالى.

إنخلاعه للموحدين عما بيده وجوازه للعدوة، ووفاته بها قالوا، ولما فسد ما بينه وبين ابن مردنيش بسبب بنته التي كانت تحت الأمير أبي محمد بن مردنيش إلى أن طلقها، وانصرفت إلى أبيها، وأسلمت إليه ابنها منه، مختارة كنف أبيها إبراهيم، نازعة في انصرامه إلى عروقها، فلقد حكي أنها سئلت عن ولدها، وإمكان صبرها عنه، فقالت: جرو كلبٍ، جرو سوءٍ، من كلب سوءٍ لا حاجة لي به، فأرسلت كلمتها في

نساء الأندلس مثلاً، فاشتدت بينهما الوحشة والفتنة، وعظمت المحنة، وهلك بينهما من الرعايا الممرورين، المضطرين، بقنينه الثوار ممن شاء الله بهلاكه، إلى أن كان أقوى الأسباب في تدمير ملكه.

ولما صرف ابن سعد عزمه إلى بلاده، وتغلب على كثير منها، خدم ابن همشك الموحدين ولاذ بهم وساتجارهم، فأجاز البحر، فقدم على الخليفة عام خمسة وستين وخمسمائة، وأقره بمواضعه، إلى أوائل عام أحد وسبعين، فطولب بالانصراف إلى العدوة بأهله وولده، وأسكن مكناسة وأقطع بها سآماً لها خطر واتصلت تحت عنايته إلى أن هلك.

وفاته: قالوا، واستمر مقام ابن همشك بمكناسة غير كبير، وابتلاه الله بفالج غريب الأغراض، شديد سوء المزاج، إلى أن هلك، فكان يدخل الحمام الحار، فيشكو حره بأعلى صراخه، فيخرج فيشكو البرد كذلك، إلى أن مضى سبيله.

ابن المرأة

هو إبراهيم بن يوسف بن دهاق الأوسي إبراهيم بن يوسف بن محمد بن دهاق الأوسي يكنى أبا إسحاق، ويعرف بابن المرأة.

حاله

سكن مالقة دهراً طويلا، ثم انتقل إلى مرسية، باستدعاء المحدث أبي الفضل المرسي والقاضي أبي بكر بن محرز، وكان متقدماً في علم الكلام، حافظا ذاكراً للحديث والتفسير، والفقه والتاريخ، وغير ذلك. وكان الكلام أغلب عليه، فصيح اللسان والقلم، ذاكراً لكلام أهل التصوف، يطرز مجالسه بأخبارهم. وكان بحراً للجمهور بمالقة ومرسية، بارعاً في ذلك متفنناً له، متقدماً فيه، حسن الفهم لما يلقيه، له وثوب على التمثيل والتشبيه، فيما يقرب للفهم، مؤثراً للخمول، قريباً من كل أحد، حسن العشرة، مؤثراً بما لديه. وكان بمالقة يتجر بسوق الغزل، قال الأستاذ أبو جعفر وقد وصمه، وكان صاحب حيل ونوادر مستظرفة، يلهى بها أصحابه، ويؤنسهم، ومتطلعاً على أشياء غريبة من الخواص وغيرها، فتن بها بعض الحلبة، واطلع كثير ممن شاهده على بعض ذلك، وشاهد منه بعضهم ما يمنعه الشرع من المرتكبات الشنيعة، فنافره وباعده بعد الاختلاف إليه، متهم شيخنا القاضي العدل المسمى الفاضل أبو بكر بن المرابط رحمه الله، أخبرني من ذلك بما شاهد مما يقبح ذكره، وتبرأ منه من كان سعى في انتقاله إلى مرسية، والله أعلم بغيبه وضميره.

تواليفه

منها شرحه كتاب الإرشاد لأبي المعالي، وكان يعلقه من حفظه من غير زيادة وامتداد، وشرح الأسماء الحسنى، وألف جزءا في إجماع الفقهاء، وشرح محاسن المجالس لأبي العباس أحمد بن العريف. وألف غير ذلك. وتواليفه نافعة في أبوابها، حسنة الرصف والمباني.

من روى عنه، أبو عبد الله بن أحلى، وأبو محمد عبد الرحمن بن وصلة.

وفاته

توفي بمرسية سنة أحد عشر وستمائة.

إسماعيل بن فرج بن نصر

إسماعيل بن يوسف بن إسماعيل بن فرج بن نصر السلطان الذي احتال على أخيه، المتوثب على ملكه، يكنى أبا الوليد.

حاله

كان صبياً كما اجتمع وجهه، بادناً، دمت الخلق، لين الجانب، شديد البياض كثيف الحاشية، متصلا بالجفوة، لطول الحجبة، وبعد التمرن والحنكة غراً، فاقداً لحسن الأدب، عريقةً ألفاظه في العجمة. تصير الأمر إلى أخيه السلطان خيرتهم ولباب بيتهم، يوم قتل أبوهما،

وله مزية السن والرجاحة، والسكنى بمحل وفاة الأب، فأبقى عليه، وأسكنه بعض القصور لصقه، ولم يضايق أمه فيما استأثرت به من بيت المال، إذ كان إقليده في يدها، وبيضاؤه وصفراؤه في حكمها، ورفه متبوأه، واستدعى له ولأخيه المعلم الذي كان السبب في إفاته إرماقهما، وإعدام حياتهما، الشيخ السفلة محمد البطروجي البائس، قرد ذلك السرب فاستمرت أيام احتجابه وانتظاره على قصره، إلى رمضان من عام ستين وسبعمائة.

وحرك سماسرة الفتنة له ولأمه جواز الطمع في الملك، ودندنوا لها حتى رقصت على إيقاعهم، وخفت إلى مواعدهم، وشمروا إلى خلاص الأمر، وأحام الوثبة صهره الرئيس أبو عبد الله، حلف الشؤم زوج أخته، محمد بن إسماعيل، الشهير الكائنة، المذكور في موضعه من حرف الميم. فسيرت إليه أمه المال، فبثه في الدعرة والشرار، حتى تم غرضه، واقتحم القلعة من بعض أسوارها عند البالية، وقد هدم منها شيء في سبيل إصلاحه، ليلة الأربعاء الثامن والعشرين لرمضان من عام ستين وسبعمائة، والسلطان ليلتئذ غير حال بها، فملؤوها لجباً ولغطاً، وصراخاً وهولا وتنويراً، في جملة تناهز المائة، وانضاف إليهم أخوان رأيهم من حراسها وسكانها، فألبس الناس، وسقط في أيديهم وأهدى الليل فتكته هائلة، وأداها شنيعة، فاقتصر كل على النظر لنفسه،

وانقسموا فرقتين، قصدت إحداهما دار كبير الدولة، وقيوم التفويض، وشيخ رجال الملك رضوان، المستبد بإحالة كورتها، الشيخ الذهول، معزوز القدر ورائب النكتة، ومعود الإقامة، وجرار رسن الأطواد، وطول الإملا، الماشي على خد الدنيا، المغضوض البصر عن النظر، المستهين بكل سبة، وحية تسعى، المعول على نظره، وقوة سعده وإجابة دعوته، مع كونه نسيج وحده في عفافه وديانته، ورضى الناس به، وسقوط منافستهم من أجله، ومأويهم على مول لفظه، وبساط معاملته، وصحة عقده، فعالجوا بابه طويلاً وتولجوا داره، وقتلوه بين أهله وولده.

وقصدت الأخرى دار الأمير المترجم به ومعها صهره، فأخرجوه وأركبوه على فرس، راعدٍ الفرائض، منتقع اللون، مختلط القول، تحف به داياته بين مولولةٍ، وتافلةٍ ومعوذة، قد جعلوا به سيفاً مصلتاً على سبيل اللواعب بالنصول والرواقص، في مدارج اللهو، واستخرجت طبول الملك فقرعت، وقيدت الخيل من مرابطها فركبت، وقصدت الخزائن السلاحية ففرقت، وتم الأمر. وحل من الريب على دار الإمارة القصد، وخرجت الكتب إلى البلاد والقواعد، فالتفت باليد أمهاتها لقطع من بها من أولى الأمانة، بتمام الأمر، وهلاك السلطان، فتم له الأمر. وبادر أخوه السلطان لحينه لظهر سابق كان مرتبطاً عند مجرٍ له

من الجنة لصق القلعة، فاستأجر الليل، ووافق الحزم، فاستقر بوادي آش. وكان أملك بها، ونازلته المحلات، وأخذ بمخنقه الحصص، واستنصرت لمنازلته الناس، وأعملت الحيل، وتأذن الله بثبوت قدمه، وانتقاله إلى ملك المغرب صبح عيد النحر من العام المذكور، إلى أن أعاد الله إليه أمره ورد عليه حقه، وتولى بعد اليأس جبره، حسبما يذكر في موضعه إن شاء الله.

وخلا الجو لهذا الأمير المضعوف، واستولى على أريكة الملك الأغمار وأولو البطالة، وأولياء صهره الرئيس، خاطبها له ابتداءً ثم ناقلها إلى فسه انتهاءً، وحاملها إلى غايته درجاً، وإلى إعاقته سلماً، وهو ما هو من غش الحبيب، وسوء العقد، ودخل السريرة، واستيطان المكروه، فأغرى منه بالعهد نفساً مطاوعةً للشهوة، متبرمة بالامتحان والخلوة، برية من نور العلم وتهذيب الحكمة، ناشئة بين أخابيث القسوة، جانيةً أماني الشهوة والمخالفة، مضادة للفلاح، حايدة عن سبيل النجاة، بمحل اغتراب عن النصحاء، وانتباذ عن مقاعد الأحرار، فجرى طلق الجموح في التخلف، حتى كبا لفيه ويديه، وأعان نسمة السوء الرئيس على نفسه، وقد كان اصطنع الرجال، واستركب أولى البسالة، وأسالف الدعرة، واختص في سبيل خدمته والذب عنه، بالبؤساء والمساعير، يشركهم في الأكلة. ويصافيهم النعمة واظلم ما

بينهما، فحذر كل جانب أخيه، إلا أن المهين كان أضعف من أن يستأثر بخطة المعالجة، ويهتدي إلى سبيل الحزم.

وفي عشي يوم الأربعاء السابع والعشرين من شهر شعبان، شارفه من مكمن غدره الرحب بجوار قصره، وارتبط به الخيل واستكثر من الحاشية، وأخفى المساعير. وداخل الموروري المشئوم على الدولة، فبادر رجاله سد الأبواب، وانخرط في جملة أو باشه من باب السلطان، من الرجل لنظر ممالئه في العنا، وعونه على الهول الموروري، فأحاط به، وقد بادر الاعتصام بالمصنع ثاني الصرح المنسوب إلى هامان سموا ونفالاً في السكاك وسعة ذرع. وبعد ما رقى وصرخ بالناس، يناشدهم الذمام، فخف إليهم منهم الكثير، وتراكموا بالطريق تحته، وتولى استنزاله عن سويه مملوك أبيه، العلج المخذول عباد، وقد تحصل في قبضته الغادر، ففتل له في الغارب والذروة، ووعده الحياة، فنزل عن أمان فسحة الغدر الصراح، والوفاء المستباح، ولحين استهاله، أمر نقله إلى المطبق، فقيد مختبلاً كثير الضراعة إلى الأرى لصق قصره، وتعاورته السيوف وألحق به صغيره قيس، استخرج من بعض الخزاين، وقد جهدت أمه في إخفائه، فمضى لسبيله، وطرح رأسه على الرعاع المجيبين لندائه، فانفضوا لحينه، وبقي مطروحاً مواري، بجلس دابة من دواب الظهر، إلى يوم بعده، فووري هو وأخوه بمقربة من مدفن أبيهم،

فكان من أمرهما عبرة. وقد استوفى ذلك الكتاب المسمى بنفاضة الجراب من تأليفنا.

وزراء دولته

قدم للوزارة عشية يوم ولايته، محمد بن إبراهيم بن أبي الفتح الفهري بطالع الشؤم، ونعبة النحس. عهدي بالطبيب الإسرائيلي الحبري العظيم المهارة في الفن النجومي، إبراهيم بن زرزار، يتطاير بتلك الولاية بكون النحس الأعظم في درجة طالعها، جذواً انفرد بنحز أديمه الجهالة، المعدودون في البهم والهمج، الذين لا يعبأ الله بهم، فكان الخبر وفوق الخبر، فلم ير في الأندلس وزارةٌ أثقل وطأة، ولا أخبث عهداً، ولا أعظم شرهاً، ولا أكثر حجراً منها، ثم كان عاقبتهما أنهما في النار خالدين فيها، وذلك جزاء الظالمين من رجل حبركة، كمداللون، تنطف سحنته مرةً وسماً، غائر العين مطأطىء الرأس، طرفٌ في الحقد والطمع، وعي المنطق، وجمود الكف، معدنٌ من معادن الجهل، مثلٌ في الخيانة، تناول الأمر مزاحماً فيه بالرئيس المتوثب، وابن عم نفسه، الغادر الضخم الجرارة، بالوعث المهين، وثور النقل، وثعيان الفواكه، وصاعقة الاخونه، ووكيل الدولة المنحط عن خلالهم بالأبوة والنشأة، فجرت أمورها أسوأ مجاريها، إلى ان كان ما أذن الله به، من مداحلة الرئيس الغادر، على قتل أميره المسكين المهين، مقلده أنوه الرتب،

وتاركه وخطة الخيانة، ثم أخذه الأخذة الرابية بيد من أمده في الغي، وظاهره في الخزي، فجعله نكالاً لما بين يديه وما خلفه، وموعظةً للمتقين، حسبما يأتي في اسمه بحول الله تعالى.

كاتبه

واستعمل في الكتابة صاحبنا الرجل الأخرق، الطوال، الأهوج البري من الخلال الحميدة، إلا ما كان من وسط الخط وسوقي السجع، والدرك الأسفل من النظم، عبد الحق بن محمد بن عطية المحاربي، الآتي ذكره. وهو الذي أفرده الله جل جلاله، بالغاية البعيدة من مجال سوء العهد، وقلة الوفاء. وتولى القضاء، أبو جعفر أحمد بن أبي القاسم بن جزي أياماً، ثم شهر به قوم من الفقهاء منافسيه، ورشقوه بما أوجب صرفه، وقدم للقضاء الشيخ المسن، الطويل السباحة في بحر الأحكام، المفرى الودجين والحلقوم بسكين القضاء، المنبور بالموبقات فيه، تجاوز الله عنه، سلمون بن علي بن سلمون. وشيخ الغزاة على عهده، يحيى بن عمر بن عبد الله ابن عبد الحق، شيخ الغزاة لأخيه، أصبح يوم الكائنة في قياده، ونصح له فأمر له، وضاعف بره.

مولده

في يوم الاثنين الثامن والعشرين لربيع الأول من عام أربعين وسبعمائة.

وفاته

حسبما تقرر آنفاً في يوم الأربعاء السابع والعشرين لشعبان من عام أحد وستين وسبعمائة.

أسد بن الفرات بن بشر بن أسد المري

من أهل قرية الصير مورته من إقليم البساط من قرى غرناطة.

حاله

كان عظيم القدر والشرف والشهرة، أصيل المعرفة والدين.

مشيخته

خرج إلى المشرق، ولقي مالك بن أنس رضي الله عنه، روي عنه سحنون ابن سعيد.

تأليفه

ألف كتاب المختلطة، وولى القضاء بالقيروان أجمل ما كانت وأكثر علماً، وولاه زيادة الله غزو صقلية، ففتحها وأبلى بلاء حسناً.

وفاته

توفي رحمه الله محاصراً سرقوسة منها سنة ثلاث عشر ومائتين. هذا ما وقع في كتاب أبي القاسم الملاحي. وذكره عياض فذكر خلافاً في اسمه وفي أوليته.

باديس بن حبوس بن ماكسن بن زيري

ابن مناد الصنهاجي كنيته أبو مناد ولقبه الحاجب المظفر بالله، الناصر لدين الله.

حاله

كان رئيساً يبساً، طاغيةً، جباراً، شجاعاً، داهية، حازماً، جلداً، شديد الأمر، سديد الرأي، بعيد الهمة، مأثور الإقدام، شره السيف، واري زناد الشر، جماعة للمال، ضخمت به الدولة، ونبهت الألقاب، وأمنت لحمايته الرعايا، وطم تحت جناح سيفه العمران، واتسع بطاعته المرهبة الجوانب ببأسه النظر، وانفسخ الملك، وكان ميمون الطائر، مطعم الظفر، مصنوعاً له في الأعداء، يقنع أقتاله بسلمه، ولا يطمع أعداؤه في حربه. قال ابن عساكر: يكنى أبا مسعود، وكان من أهل الحزم وحماية الجانب، وكان يخطب ويدعو للعلويين بمالقة، فلما توفي إدريس بن يحيى العالي، ملك مالقة سنة ثمان وأربعين وأربعمائة.

وقال الفتح في قلائده: كان باديس بن حبوس بغرناطة عاثياً في فريقه، عادلاً عن سنن العدل وطريقه، يجترىء على الله غير مراقب، ويسري إلى ما شاء غير ملتفت للعواقب، قد حجب سنانه لسانه، وسبقت إساءته إحسانه، ناهيك من رجل لم يبت من ذنبٍ على ندم، ولم يشرب الماء إلا من قليب دم، أحزم من كاد ومكر، وأجرم من راح وابتكر، وما زال متقداً في مناحيه، متفقداً لنواحيه، لا يرام بريث ولاعجل، ولا يبيت له جار إلا على وجل.

أخباره في وقائعه

ينظر إيقاعه بزهير العامري ومن معه في اسم زهير، فقد ثبت منه هنالك نبذة، وإيقاعه بجيش ابن عباد بمالقة عندما طرق مالقة وتملكها، واستصرخ من استمسك بقصبتها من أساودها، وغير ذلك مما هو معلوم، وشهرته مغنية عن الإطالة.

ومن أخباره في الجبرية والقسوة، قال ابن حيان: عندما استوعب الفتكة بأبي نصر بن أبي نور اليفرني أمير رندة المنتزي بها وقتله، ورجوعها إلى ابن عباد، حكي أبو بكر الوسنشاني الفقيه عن ثقة عنده من أصادقة التجار، أنه حضر مدينة غرناطة، حضرة باديس بن حبوس الجبار، أيام حدث علي أبي نصر صاحب تاكرنا ما حدث، وأن أميرها باديس قام للحادثة، وقعد، وهاج من داء عصبيته ما قد سكن، وشق

أثوابه، وأعلن أعواله، وهجر شرابه الذي لا صبر له عنه، وجفا ملاذه، وأوهمته نفسه الخبيثة تمالؤ رعيته من أهل الأندلس، على الذي دهي أبا نصر، فسولت له نفسه حمل السيف على أهل حضرته جميعاً، مستحضراً لهم، وكيماً ينبرهم، ويخلص برابرته وعبيده فيريح نفسه، ودبر أن يأتي ذلك إليهم عند اجتماعهم بمسجدهم الجامع الأقرب أيام الجمعة، من قوة همومه، وشاور وزيره اليهودي يوسف بن إسماعيل، مدبر دولته الذي لا يقطع أمراً دونه، مستخلياً مستكتماً بسره، مصمماً في عزمه، إن هو لم يوافقه عليه، فنهاه عن ذلك وخطأ رأيه فيها، وسأله الأناة ومحض الروية، وقال له هبك وصلت إلى إرادتك ممن بحضرتك، على ما في استباحتهم من الخطر، فأني تقدر على الإحاطة بجميعهم من أهل حضرتك، وبسائط أعمالك؟ أتراهم يطمئنون إلى الذهول عن مصائبهم، والاستقرار في موضعهم؟ ما أراهم إلا سيوفاً ينتظمون عليك في جموعٍ، يغرقونك في لجحها أنت وجندك، فرد نصيحته، وأخذ الكتمان عليه، وتقدم إلى عارضه باعتراض الجند في السلاح، والتعبية لركوبه يوم الفتكة، يوم تلك الجمعة، فارتج البلد. وذكر أن اليهودي دس نسواناً إلى معارف لهن من زعماء المسلمين بغرناطة، ينهاهم عن حضور المسجد يومهم، ويأمرهم بإخفاء أنفسهم، وفشا الخبر فتخلف الناس عن شهود الجمعة، ولم يأته إلا نفر من عامتهم، اقتدوا بمن أتاه من مشيخة البربر وأغفال القادمين، وجاء إلى

باديس الخبر، والجيش في السلاح حوالي قصره، فساءه وفت في عضده، ولم يشك في فشو سره، وأحضر وزيره وقلده البوح بسره فأنكر ما قرفه به، وقال ومن أين ينكر على الناس الحذر، وأنت قد استركبت جندك وجميع جيشك في التعبية، لا لسفرٍ ذكرته، ولا لعدو وثب إليك، فمن هناك حدس القوم على أنك تريدهم، وقد أجمل الله لك الصنع في نفارهم، وقادك إصارهم، فأعد نظرك يا سيدي، فسوف تحمد عاقبة رأيي وغبطة نصحي. فنصح وزيره شيخٌ من موالي صنهاجته، فانعطف لذلك بعد لأي، وشرح الله صدره. ويجري التعريف بشيء من أمور وزيره.

قال ابن عذاري المراكشي في كتابه المسمى بالبيان المغرب: أمضى باديس كاتب أبيه ووزيره ابن نغرالة اليهودي، وعمالاً متصرفين من أهل ملته، فاكتسبوا الجاه في أيامه واستطالوا على المسلمين. قال ابن حيان، وكان هذا اللعين في ذاته، على ما زوى الله عنه من هدايته، من أكمل الرجال علماً وحلماً وفهماً، وذكاء، ودماثة، وركانة، ودهاء، ومكراً، وملكا لنفسه، وبسطاً من خلقه، ومعرفةً بزمانه، ومداراة لعدوه، واستسلالاً لحقودهم بحلمه، ناهيك من رجل كتب بالقلمين، واعتنى بالعلمين، وشغف باللسان العربي، ونظر فيه، وقرأ كتبه، وطالع أصوله، فانطلقت يده ولسانه، وصار يكتب عنه وعن صاحبه بالعربي،

فيما احتاج إليه من فصول التحميد لله تعالى، والصلاة على رسوله صلى الله عليه وسلم، والتزكية لدين الإسلام، وذكر فضائله، ما يريده، ولا يقصرفيما ينشئه عن أوسط كتاب الإسلام، فجمع لذلك، السجيج في علوم الأوائل الرياضية وتقدم منتحليها بالتدقيق للمعرفة النجومية، ويشارك في الهندسة والمنطق، ويفوق في الجدل كل مستول منه على غاية، قليل الكلام مع ذكائه، ماقتاً للسباب، دائم التفكر، جماعةٌ للكتب. هلك في العشر الثاني لمحرم سنة تسع وخمسين وأربعمائة، فجلل اليهود نعشه، ونكسوا لها أعناقهم خاضعين، وتعاقدوه جازعين، وبكوه معلنين، وكان قد حمل ولده يوسف المكنى بأبي حسين على مطالعة الكتب، وجمع إليه المعلمين والأدباء من كل ناحية، يعلمونه ويدارسونه، وأعلقه بصناعة الكتابة، ورشحه لأول حركته، لكتابة ابن مخدومه بلكين برتبة المترشح لمكانه، تمهيداً لقواعد خدمته، فلما هلك إسماعيل في هذا الوقت، أدناه باديس إليه، وأظهر الاغتباط به، والاستعاضة بخدمته عن أبيه.

مقتل اليهودي يوسف بن إسماعيل (ابن نغرالة الإسرائيلي):

قال صاحب البيان، وترك ابناً له يسمى يوسف لم يعرف ذل الذمة، ولا قذر اليهودية. وكان جميل الوجه، حاد الذهن، فأخذ في الاجتهاد في الأحوال، وجمع المال، واستخراج الأموال، واستعمال

اليهود على الأعمال، فزادت منزلته عند أميره، وكانت له عليه عيون في قصره من نساءٍ وفتيانٍ، يشملهم بالإحسان، فلا يكاد باديس يتنفس، إلا وهو يعلم ذلك. ووقع ما تقدم ذكره، في ذكر بلكين من اتهامه بسمه، وتوليه التهمة به عند أبيه، للكثير من جواريه وخدامه، وفتك هذا بقريب له، تلو له في الخدمة والوجاهة، يدعى بالقائد، شعر منه بمزاحمته إياه فتكة شهيرة، واستهدف للناس فشغلت به ألسنتهم، وملئت غيظاً عليه صدورهم، وذاعت قصيدة الزاهد أبي إسحاق الإلبيري، في الإغراء بهم، واتفق أن أغارت على غرناطة بعوثٌ صمادحية تقول إنها باستدعائه، ليصير الأمر الصنهاجي إلى مجهزها الأمير بمدينة ألمرية. وباديس في هذه الحال منغمسٌ في بطالته، عاكفٌ على شرابه. ونمى هذا الأمر إلى رهطه من صنهاجة، فراحوا إلى دار اليهودي مع العامة، فدخلوا عليه، فاختفى، زعموا في بيت فحم، وسود وجهه، يروم التنكير فقتلوه لما عرفوه، وصلبوه على باب مدينة غرناطة، وقتل من اليهود في يومه، مقتلةٌ عظيمة، ونهبت دورهم، وذلك سنة تسع وخمسين وأربعمائة. وقبره اليوم وقبر أبيه يعرف أصلاً من اليهود ينقلونه بتواترٍ عندهم، أمام باب إلبيرة، على غلوة، يعترض الطريق، على لحده حجارة كدان جافية الجرم، ومكانه من الترفه والترف والظرف والأدب معروفٌ، وإنما أتينا ببعض أخباره لكونه ممن لا يمنع ذكره في أعلام الأدباء والأفراد إلا نحلته.

مكان باديس من الذكاء وتولعه بالقضايا الآتية: قال ابن الصيرفي حدثني أبو الفضل جعفر الفتى، وكان له صدقٌ. وفي نفسه عزة وشهامة وكرم، وأثنى عليه،وعرف به، حسبما يأتي في اسم جعفر المذكور. قال، خاض باديس مع أصحابه في المجلس العلي، من دار الشارب بقصره، واصطفت الصقاليب والعبيد بالبرطل المتصل به لتخدم إرادته، فورد عليه نبأ قام لتعرفه عن مجلسه، ثم عاد إلى موضعه وقد تجهم وجهه، وخبثت نفسه، فحذر ندماؤه على أنفسهم، وتخيلوا وقوع الشر بهم، ثم قال أعلمتم ما حدث، قالوا لا والله يطلع على خير، قال: دخل المرابط الدمنة، فسرى عن القوم، وانطلقت ألسنتهم بالدعاء بنصره، وفسحة عمره، ودوام دولته، ثم وجموا لوجومه، فلما رأى تكدر صفوهم، قال أقبلوا على شأنكم، ما نحن وذاك، اليوم خمر وغداً أمر، بيننا وبينه أمداد الفجو، والنشور الجبال وأمواج البحار، ولكن لا بد له أن يتملك بلدي، ويقعد منه مقعدي، وهذا أمر لا يلحقه أحد منا، وإنما يشقى أحفادنا، قال جعفر، فلما دخل الأمير القصر، عند خلعه حفيد باديس برحبة مؤمل، طاف بكل ركن ومكان منه، وأنا في جملته حتى انتهى إلى ذلك المجلس، فبسط له ما قعد عليه فتذكرت قول باديس، وتعجبت منه تعجباً ظهر علي، فالتفت إلى أمير المسلمين منكراً، وسألني ما بي، فأخبرته وصدقته، وقصصت عليه قول

باديسن فتعجب، وقام إلى المسجد بمن معه، فصلى فيه ركعات، وأقبل يترحم على قبره.

وفاته: قال أبو القاسم بن خلف: توفي باديس ليلة الأحد الموفى عشرين من شوال سنة خمسة وستين وأربعمائة، ودفن بمسجد القصر. قلت، وقد ذهب أثر المسجد، وبقي القبر يحف به حلقٌ له باب، كل ذلك على سبيل من الخمول، وجدث القبر رخام، إلى جانب قبر الأمير المجاهد أبي زكريا يحيى بن غانية المدفون في دولة الموحدين به.

وقد أدال اعتقاد الخليفة في باديس بعد وفاته، قدم العهد بتعرف أخبار جبروته وعتوه على الله سبحانه، لما جبلهم عليه من الانقياد للأوهام والانصياع للأضاليل، فعلى حفرته اليوم من الازدخام بطلاب الحوائج والمستشفين من الأسقام، حتى أولى الدواب الوجيعة، ما ليس على قبر معروف الكرخي، وأبي يزيد البسطامي.

ومن أغرب ما وقفت عليه رقعة رفعها إلى السلطان على يدي، وجل من أهل الخبر مكتب يوم في مسجد القصبة القدمى من دار باديس، يعرف بابن باق، وهو يتوسل إلى السلطان ويسأل منه الإذن في دفنه مجاوراً لقبره. وعفو الله أوسع من أن يضيق على مثله، ممن أسرف على نفسه، وضيع حق ربه. ودايره اليوم طلول قد تغيرت

أشكالها وقسم التملك جناتها، ومع ذلك فمعاهدها إليه منسوبةٌ، وأخباره متداولة.

وقد ألمعت في بعض مشاهده بقولي من قصيدة، غريبة الأغراض، تشتمل على فنون أثبتها إحماضاً وفكاهة، لمن يطالع هذا الكتاب، وإن لم يكن جلبها ضرورياً فيه فمنها:

عسى خطرة بالركب يا حادي العيس على الهضبة الشماء من قصر باديس

تاشفين بن علي بن يوسف أمير المسلمين

أوليته

فيما يختص به التعريف بأولية قومه، ينظر في اسم أبيه وجده إن شاء الله. قال ابن الوراق في كتاب المقياس وغيره: وفي سنة اثنتين وعشرين وخمسمائة، ولي الأمير علي بن يوسف أمير لمتونة، الشهير بالمرابط ولده الأمير المسمى بسير عهده من بعده، وجعل له الأمر في بقية حياته، ورأى أن يولي ابنه تاشفين الأندلس، فولاه مدينة غرناطة، وألمرية ثم قرطبة مضافة إلى ما بيده، قلت، وفي قولهم رأى أن يولي الأندلس فولاه مدينة غرناطة، شاهد كبير على ما وصفناه من شرف هذه المدينة، فنظر في مصالحها، وظهر له بركة في النصر على العدو، وخدمه الجد الذي أسلمه، وتبرأ منه في حروبه مع الموحدين حسبما يتقرر في موضعه، فكانت له على النصارى وقائع عظيمة بعد لها

الصيت، وشاع الذكر حسبما يأتي في موضعه. قال، فكبر ذلك على أخيه سيرولي عهد أبيه، وفاوض أباه في ذلك وقال له: إن الأمر الذي أهلتني إليه لا يحسن لي مع تاشفين، فإنه قد حمل الذكر والثناء دوني، وغطى على اسمي، وأمال إليه جميع أهل المملكة، فليس لي معه اسمٌ ولا ذكرٌ. فأرضاه بأن عزله عن الأندلس وأمره بالوصول إلى حضرته، فرحل عن الأندلس في أواسط سنة إحدى وثلاثين وخمسمائة ووصل مراكش، وصار من جملة من يتصرف بأمر أخيه سير ويقف ببابه كأحد حجابه، فقضى الله وفاة الأمير سير على الصورة القبيحة حسبما يذكر في اسمه، وثكله أبوه واشتد جزعه عليه، وكان عظيم الإيثار والإرضاء لأمه قمر، وهي التي تسببت في عزل تاشفين وإخماله نظراً إلى ابنها، فقطع المقدار بها عن أملها بهلاكه.

ولما توفي الأمير سير، أشارت الأم المذكورة على أبيه بتقديم ولده إسحاق، وكان رؤوماً لها قد تولت تربيته عند هلاك أمه وتبنته، فقال لها، وهو صغير السن لم يبلغ الحلم، ولكن حتى أجمع الناس في المسجد خاصة وعامة، وأخبرهم فإن صرفوا الخيار إلى فعلت ما أشرت به، فجمع الناس وعرض عليهم الأمر، فقالوا كلهم في صوت واحد: تاشفين، فلم توسعه السياسة مخالفتهم، فعقد له الولاية بعده ونقش اسمه في الدنانير والدراهم مع اسمه، وقلده النظر في الأمور السلطانية،

فاستقر بذلك. وكتب إلى العدوة والأندلس وبلاد المغرب ببيعته، فوصلت البيعات من كل جهة. ثم رمى به جيوش الموحدين الخارجين عليه، فنبا جده ومرضت أيامه، وكان الأمر عليه لا له بخلاف ما صنع الله له بالأندلس.

قال أبو مروان الوراق:

وكان أمير المسلمين، علي بن يوسف بن تاشفين قد أمل في ابنه تاشفين ما لم تكن الأقدار تساعده به، فتشاءم به وعزم على خلعه وصرف عهده، إلى إسحاق ولده الأصغر، ووجه إلى عامله على إشبيلية أغمار، أن يصل إليه ليجعله شيخ ابنه، إلى أن وافاه خبرٌ أمضه وأقلقه ولم يمهله، فأزعج تاشفين إلى عدوه على غير أهبة بتفويضه إياه، وصرف المدد في إثره، وتوفي لسبع خلون من رجب سنة سبع وثلاثين لفعله ذلك.

ملكه ووصف حاله:

فأفضى إليه ملك أبيه، بتفويضه إياه في حياته،لسبع خلون من رجب سنة سبع وثلاثين وخمسمائة، وكان بطلاً شجاعاً حسن الركبة والهيئة. سالكاً ناموس الشريعة، مائلاً إلى طريقة المستقيمين، وكتب المريدين، قبل إنه لم يشرب قط مسكراً ولا استمع إلى قينة، ولا اشتغل بلذة مما يلهو به الملوك.

الثناء عليه:

قال ابن الصيرفي: وكان بطلاً شجاعاً، أحبه الناس، خواصهم وعوامهم، وحسنت سياسته فيهم، وسد الثغور، وأذكى على العدو العيون، وآثر الجند، ولم يكن منه إلا الجد، ولم تنل عنده الحظوة إلا بالعناء والنجدة. وبذلك حمل على الخيل، وقلد الأسلحة، وأوسع الأرزاق، واستكثر من الرماة، وأركبهم، وأقام همتهم للاعتناء بالثغور ومباشرة الحرب، ففتح الحصون وهزم الجيوش وهابه العدو، ولم ينهض إلا ظاهراً ولا صدر إلا ظافراً، وملك الملك ومهد بالحزم وتملك نفوس الرعية بالعدل. وقلوب الجند بالنصفة. ثم قال: ولولا الاختصار الذي اشترطناه لأوردنا من سنى خلاله ما يضيق عنه الرحب، ولا يسعه الكتب.

دينه: قال المؤرخ، عكف على زيارة قبر أبي وهب الزاهد بقرطبة، وصاحب أهل الإرادة، وكان وطيء الأكناف، سهل الحجاب. يجالس الأعيان ويذاكرهم، قال ابن الصيرفي، ولما قدم غرناطة أقبل على صيام النهار، وقيام الليل، وتلاوة القرآن، وإخفاء الصدقة، وإنشاء العدل، وإيثار الحق.

دعابته

قالوا مر يوماً بمرج القرون، من أحواز قلعة يحصب فقال لزمال من عبيده كان يمازحه هذا مرجك، فقال الزمال ما هو إلا مرجك ومرج أبيك، وأما أنا فمن أنا؟ فضحك وأعرض عنه.

دخوله غرناطة: قالوا: وفي عام ثلاثة وعشرين وخمسمائة، ولي الأمير أبو محمد تاشفين بن أمير المسلمين علي بن امير المسلمين يوسف، ووافاها في السابع عشر لذي حجة، فقوي الحصون وسد الثغور وأذكى العيون، وعمد إلى رحبة القصر، فأقام بها السقائف والبيوت، واتخذها لخزن السلاح ومقاعد الرجال، وضرب السهام، وأنشأ السقي، وعمل التراس، ونسج الدروع، وصقل البيضات والسيوف، وارتبط الخيل، وأقام المساجد في الثغور، وبنى لنفسه مسجداً بالقصر، وواصل الجلوس للنظر في الظلامات، وقراءة الرقاع، ورد الجواب، وكتب التوقيعات، وأكرم الفقهاء والطلبة، وكان له يوم في كل جمعة، يتفرغ فيه للمناظرة.

وزراؤه: قال أبو بكر، وقرن الله به ممن ورد معه، الزبير بن عمر اللمتوني، ندرة الزمان كرماً وبسالة، وحزماً وأصالة. فكان كما جاء في الحديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم: "من ولي شيئاً من أمور المسلمين فأراد الله به خيراً، جعل الله له بطانة خيرٍ، وجعل له وزيراً صالحاً، إن نسي شيئاً ذكره، وإن ذكره أعانه".

عماله

الوزير أبو محمد الحسين بن زيد بن أيوب بن حامد بن منحل بن يزيد.

كتابه

الرئيس العالم أبو عبد الله بن أبي الخصال، والكاتب المؤرخ أبو بكر الصيرفي وغيرهم.

من أخبار جهاده

خرج الأمير تاشفين في رمضان عام أربعة وعشرين وخمسمائة بجيش غرناطة ومطوعتها، واتصل به جيش قرطبة إلى حصن السكة من عمل طليطلة، وقد اتخذه العدو ركاباً لإضراره بالمسلمين، وسحنه وجم به شوكة حادة بقومس مشهور، فأحدق به، ونشر الحرب عليه، فافتتحه عنوة وقتل من كان به، وأحيا قائده فرند ومن معه من الفرسان، وصدر إلى غرناطة، فبرز له الناس بروزاً لم يعهد مثله. وفي شهر صفر من عام خمسة وعشرين أوقع بالعدو المضيق على أوليته. وفي ربيع الأول من عام ستة وعشرين، تعرف خروج عدو طليطلة إلى قرطبة، فبادر الأمير تاشفين إلى قرطبة، ثم نهد إلى العدو في خف، وترك السيقة والثقل بأرجونة. وقد اكتسح العدو بشنت إشطيبن والوادي الأحمر. وأسرى الليل، وواصل الركض، وتلاحق بالعدو بقرية براشة. فتراءى الجمعان صبحاً، وافتضح الجيش، ونشرت الرماح والرايات، وهدرت الطبول، وضاقت المسافة، وانتبذ العدو عن الغنيمة، والتف الجمع، فتقصرت الرماح، ووقعت المسابقة، ودارت

الحرب على العدو، وأخذ السيف مأخذه، فأتى القتل على آخرهم، وصدر إلى غرناطة ظافراً. وفي آخر هذا العام خرج العدو للنمط وقد احتفل في جيشه إلى بلاد الإسلام، فصبح إشبيلية يوم النصف من رجب، وبرز إليه الأمير أبو حفص عمر بن علي بن الحاج، فكانت به الدبرة في نفر من المسلمين استشهد جميعهم، ونزل العدو على فرسخين من المدينة فجللها نهباً وغارةً، فقتل عظيماً، وسبى عظيما، وبلغ الخبر الأمير تاشفين، فطوى المراحل، ودخل إشبيلية، وقد أسرها،واستؤصلت باديتها، وكثر بها التأديب والتنكيل فأخذ أعقاب العدو، وقد قصد ناحية بطليوس وباجة ويابرة في ألف عديدة من أنجاد الرجال، ومشهور الأبطال، فراش جولاً عهداً بالروع، فظفر بما لا يحصيه أحد، ولا يقع عليه عدد، وانثنى على رسل انتقل السيقة، وثقته ببعد الصارخ، وتجشمت بالأمير تاشفين الأدلاء كل ذروة وثنية، وأفضى به الإعداد إلى فلاة بقرب الزلاقة، وهو المهيع الذي يضطر العدو إليه، ولم يكن إلا كلا ولا، حتى أقبلت الطلائع منذرةً بإقبال العدو، والغنيمة في يده قد ملأت الأرض، فلما تراءى الجمعان، واضطربت المحلات، ورتبت المراكب، فأخذت مصافها، ولزمت الرجال مراكبها، فكان القلب مع الأمير ووجوه المرابطين وأصحاب الطاعات، وعليه البنود الباسقات، مكتبة بالآيات، وفي المجتبين كبار الدولة من أبطال الأندلس، عليهم حمر الرايات بالصور الهائلة، وفي

الجناحين أهل الثغر والأوشاب من أهل الجلادة، عليهم الرايات المرقعات، بالعذبات المجزعات. وفي المقدمة مشاهير زناتة ولفيف الحشم بالرايات المصبغات المنبقات. والتقى الجمعان، ونزل الصبر، وحميت النفوس، واشتد الضرب والضراب وكثرت الحملات، فهزم الله الكافرين، وأعطوا رقابهم مدبرين، فوقع القتل، واستلحم العدو السيف، واستأصله الهلاك والأسار، وكان فتحاً جليلا لا كفاء له، وصدر الأمير تاشفين ظافراً إلى بلده في جمادى من هذا العام. ولو ذهبنا لاستقصاء حركات الأمير تاشفين وظهوره لاستدعى ذلك طولا كثيراً.

وفاته

قد تقدم انصرافه عن الأندلس سنة إحدى وثلاثين وخمسماية، وقيل سنة اثنين، واستقراره بمراكش مرؤوساً لأخيه سير، إلى أن أفضى إليه الأمر بعد أبيه قال، واستقبل تاشفين مدافعة جيش أمير الموحدين، أبي محمد عبد المؤمن بن علي خليفة مهديهم، ومقاومة أمر قضى الله ظهوره، والدفاع عن ملك بلغ مداه، وتمت أيامه. كتب الله عليه، فالتأث سعده، وفل جده، ولم تقم له قائمةٌ إلى أن هزم، وتبدد عسكره، ولجأ إلى وهران، فأحاط به الجيش، وأخذ الحصار، قالوا فكان من تدبيره أن يلحق ببعض السواحل، وقد تقدم به وصول ابن

ميمون قائد أسطوله، ليرفعه إلى الأندلس، فخرج ليلا في نفر من خاصته فرقهم الليل، وأضلهم الروع، وبددتهم الأوعار، فمنهم من قتل، ومنهم من لحق بالقطائع البحرية، وتردى بتاشفين فرسه من بعض الحافات، ووجد ميتاً في الغد، وذلك ليلة سبع وعشرين لرمضان سنة تسع وثلاثين وخمسمائة، وصلبه الموحدون، واستولوا على الأمر من بعده، والبقاء لله تعالى.

حفصة بنت الحاج الركوني

من أهل غرناطة، فريدة الزمان في الحسن، والظرف، والأدب واللوذعية، قال أبوالقاسم، كانت أديبة، نبيلة، جيدة البديهة، سريعة الشعر.

بعض أخبارها

قال الوزير أبو بكر بن يحيى بن محمد بن عمر الهمداني، رغبت أختي إلى حفصة أن تكتب شيئاً بخطها فكتبت.

يا ربة الحسن بل يا ربة الكرم　　غضى جفونك عما خطه القلم
تصفحيه بلحظ الود منعمة　　لا تحفلي بقبيح الخط والكلم

قال أبوالحسن بن سعيد، وقد ذكر أنهما باتا بحوز مؤمل في جنة له هنالك على ما يبيت عليه أهل الظرف والأدب، قال:

رعى الله ليلاً لم يرع بمذمم　　رعانا ووارانا بحوز مؤمل

وقـد نفحـت مـن نحـو نجـد أريجـه إذا نفحـت هبـت بـريح القرنفـل
وغـرد قمـريٌ علـى الـدوح وانثـنى قضيبٌ من ريحان من فوق جدول
يرى الروض مسروراً بما قد بدا له عنـــاق وضـــم وارتشـــاف مقبـــل

فقالت:

لعمـرك مـا سـر الـرياض وصـالنا ولكنـه أبـدى لنـا الغـل والحسـد
ولا صـــفق النهـــر ارتياحـــاً لقربنـــا ولا مـدح القمـري الأ لمـا وجـد
فلا تحسبن الظن الذي أنت أهله فمـا هـو في كـل المـواطن بالرشـد
فما خلت هذا الأفق أبدى نجومه لأمرٍ سوى كي ما يكون لنا رصد

قال أبوالحسن بن سعيد، وبالله ما أبدع ما كتبت به إليه وقد بلغها أنه علق بجارية سوداء أسعت له من بعض القصور، فاعتكف معها أياماً وليالي، بظاهر غرناطة، في ظل ممدود، وطيب هوى مقصور وممدود:

يا أظـرف النـاس قبـل حـالٍ أوقعـــــه نحـــــوه القـــــدر
عشـــقت ســـوداء مثـــل ليـــل بـــدائع الحســـن قـــد ســـتر
لا يظهـــر البشـــر في دجاهـــا كـــلا ولا يبصـــر الخفـــر
بالله قـــــل لي وأنـــــت أدرى بكـــل مـــن هـــام في الصـــور
مـــن الـــذي هـــام في جنـــان لا نـــــوار فيـــــه ولا زهـــــر

فكتب إليها بأظرف اعتذار، وألطف أنوار:

لا حكـــــم إلا لآمـــــر ناهٍ لـــــه مـــــن ذنبـــــه معتـــــذر
لـــــه محيـــــا بـــــه حيـــــاتي أعيـــــذ مـــــداه بالســـــور

كصـــحبة العيـــد في ابتهـــاج وطلعـــةٍ الشـــمس والقمـــر
ســـعده لم أمـــل إليـــه إلا اطرافـــــاً لـــــه خـــــبر
عـدمت صبحي فاسـود عـش قـي وانعكـس الفكـر والنظـر
إن لم تلـــــح يا نعـــــيم رو حـي فكيـف لا تفسـد الفكـر

قال، وبلغنا أنه خلا مع حاتم وغيره من أقاربهم، لهم طربٌ ولهو، فمرت على الباب مستترة. وأعطت البواب بطاقةً فيها مكتوب:

زائـر قـد أتـى بجيـد غـزال طـامع مـن محبـه بالوصـال
أتـــراكم بإذنكـــم مســـعفيه أم لكـم شـاغلٌ مـن الأشـغال

فلما وصلت الرقعة إليه، قال ورب الكعبة، ما صاحب هذه الرقعة إلا الرقيعة حفصة، ثم طلبت فلم توجد. فكتب إليها راغباً في الوصال والأنس الموصول:

أي شـغل عـن الحبيـب يعـوق يا صاحباً قد آن منه الشروق
صل وواصل فأنت أشهى إلينا من جميع المنى فكم ذا تشوق
بحيـاة الرضـى يطيـب صـبوحٌ عرفـاً إن جفوتنـا أو غبـوق
لا وذل الهـوى وعـز التلاقـي واجتمـاع إليـه عـز الطريـق

وذكرها الأستاذ في صلته فقال: وكانت أستاذة وقتها. وانتهت إلى أن علمت النساء في دار المنصور، وسألها يوماً أن تنشده ارتجالا فقالت:

أمـــــنن علـــــى بصـــــك يكـــــون للـــــدهر عـــــدة

تخـــــط يمنـــــاك فيـــــه الحمـــــــد لله وحـــــــده

قال: فمن عليها، وحرز لها ما كان لها من ملك.

وفاتها: قالوا: توفيت بحضرة مراكش في آخر ثمانين أو إحدى وثمانين وخمسمائة.

محمد بن إسماعيل بن نصر

محمد بن إسماعيل بن فرج بن إسماعيل بن نصر الرئيس المتوثب على الملك، وحي كرسي الإمارة، وعاقد صفقة الخسران المبين، يكنى أبا عبد الله.

أوليته، معروفة.

حاله:

من نفاضة الجراب وغيره كان شيطاناً، ذميم الخلق، حرفوشاً، على عرف المشارقة، مترامياً للخسائس، مألفاً للدعرة والأجلاف والسوار وأولى الريب، خبيثاً كثير النكر، منغمساً في العهن، كلفاً بالأحداث، متقلباً عليهم في الطرق، خليع الرسن، ساقط الحشمة، كثير التبذل، قواد عصبة كلاب، معالجاً لأمراضها، مباشراً للصيد بهما، راجلاً في ثياب منتاب الشعر من الجلود والسوابل والأسمال، عقد له السلطان على بنته لوقوع القحط في رجال بيتهم، ونوهه

بالولاية، وأركبه، وأغضى له عن موبقات تقصر به، إلى أن هلك، وحاد الأمر عن شقيق زوجه، واستقر في أخيه، وثقل على الدولة، لكراهة طلعته، وسوء الأحدوثة به، فأمر بترك المباشرة، والدخول للقلعة، وأذن له في التصرف في البلد والفحص، وأبقيت عليه النعمة، فداخل أم زوجه، وضمن لها تمام الأمر لولدها، وأمدته بالمال، فنظر من المساعير شيعةً، من كسرة الأغلاق، وقتلة الزقاق، ومختلسي البضائع، ومخيفي السابلة، واستضاف من أسافلة الدولة، من آسفته بإقصار قصد، أو مطل وعد، أو حط رتبة، أو عزل عن ولاية، فاستظهر منهم بعدد ولا، كالشقي الدليل الموروي، الغريب الطور، وإبراهيم بن أبي الفتح المنبوذ بالإضليع، قريع الجهل، ومستور العظيمة، وارتادوا عورة القلعة، فاهتدوا منها إلى ما شاءوا وتألفوا بخارج، ثم تسللوا ببطن الوادي المعروف بهداره، إلى أن لصقوا بجناح السور الصاعد، الراكبة قوسه جرية النهر، وصعدوا مساوقين جناحه المتصل بسور القلعة، وقد نقص كثير من ارتفاعه، لحدثان إصلاح فيه، فتسوروه عن سلم، ودافع بعض محاربيهم بعضاً، في استباق أدراجه، فدخلوا البلد في الثلث الأخير من ليلة الأربعاء الثامن والعشرين لرمضان، عام ستين وسبعمائة، ثم استغلظوا بالمشاعل، وقتلوا نائب الملك رضواناً النصري، سايس الأمر، وبقية المشيخة، واستخرجوا السلطان الذي هو يزيفه، فنصبوه للناس، وتم الأمر، بما دل على

احتقار الدنيا عند الله، وانخرط هذا الخب، في طور غريب من التنزل للسلطان، والاستخدام لأمه، والتهالك في نصحه، وخلط نفسه فيه، وتبذل في خدمته، يتولى له الأمور، ويمشي في زي الأشراط بين يديه، ويتأتى لشهواته، ويتظاهر بحراسته. ولما علم أن الأمر يشق تصيره إليه من غير واسطة، بغير انقياد الناس إليه، من غير تدريج كاده، فألطف الحيلة في مساعدته على اللذات، وإغرائه بالخبائث، وشغله بالعهر، وقتله بالشهوات المنحرفة، وجعل يترأ من دنيته وينفق بين الناس من سلع اغتيابه، ويرى الجماهير الإنكار لصنيعه، ويزين لهم الاستعاضة منه بعد ما غلظت شوكته، وضم الرجال إلى نفسه مورياً بحفظه، والاستظهار على صونه. وفي الرابع من شعبان عام أحد وستين وسبعمائة، ثار به في محل سكناه في جواره، واستجاش أولياء غدره، وكبس منزله، مداخلا للوزير المشئوم، عاقداً معه صفقة الغدر. وامتنع السلطان بالبرج الأعظم، فاستنزله وقتله، كما مر في اسم المذكور قبل، واستولى على الملك، فلم يختلف عليه اثنان.

واشتغل طاغية الروم بحرب، كان بينه وبين القطالنيين، فتمالأ لمسالمته، فاغتبط الصنيع وتهنا المنحة، وتشطط على الروم في شروط غير معتادة، سامحوه بها مكيدة واستدراجاً، واجتاز أمير المسلمين المصاب بغدره إلى الأندلس، طالباً لحقه، ومبادراً إلى رد أمره، فسقط

في يده، ووجه الجيش إليه بمثواه من بلد رندة، فانصرف عنها خائباً، ورجع أدراجه، يشك في النجاة، وتفرغ إليه الطاغية، ففض عليه جمه، وقد أجرت عليه شوكته وقيعةً، نصر الله فيها الدين، وأملى لهذا الوغد فلم يقله العثرة بعدها. ونازل حصونه المهتضمة واستولى على كثير منها، وحام فلم يصحر غلوة، وأكذب ما موه به من البسالة. وظهر للناس بلبس الصوف، وأظهر التوبة على سريرة دخلة، وفسق مبين، وقل ما بيده، ونفد بيت ماله، فلم يجد شيئاً يرجع إليه، من بعد ما سبك الآنية والحلية، وباع العقار لبتذيره، وسحه المال سحاً، في أبواب الأراجيف والاختلاف، والبهج بالغنا، فشرف الإنقاب إلى الفرار، وأزمع إلى الانسلال. وعندما تحرك السلطان إلى غربي مالقة، ونجع أهلها بطاعته ودخلوا في أمره، وسقط عليه الخبر. اشتمل على الذخيرة جمعاء، وهي التي لم تشتمل خزائن الملوك مطلقاً على مثلها، من الأحجار واللؤلؤ والقصب، والتف عليه الجمع المستميت، جمع الضلال ومرد الغي.

وخرج عن المدينة ليلة الأربعاء السابع عشر من جمادى الآخرة. وصوب وجهه إلى سلطان قشتالة، مكظومٌ تجنيه، وموتور سوء جواره، من غير عهد، إلا ما أمل من التبقي عنده من التذميم به، وضمان إتلاف الإسلام، واستباحة البلاد والعباد بنكرته.ة الأربعاء السابع

عشر من جمادى الآخرة. وصوب وجهه إلى سلطان قشتالة، مكظومٌ تجنيه، وموتور سوء جواره، من غير عهد، إلا ما أمل من التبقي عنده من التذميم به، وضمان إتلاف الإسلام، واستباحة البلاد والعباد بنكرته.

ولما استقر لديه نزله، تقبض عليه، وعلى شر ذمته المنيفة على ثلاثمائة فارس من البغاة، كشيخ جنده الغربي إدريس بن عثمان بن إدريس بن عبد الله بن عبد الحق، ومن سواه، تحصل بسببهم بيد الطاغية، كل ما تسمو إليه الآمال، من جواد فاره، أومنطقة ثقيلة، وسلاح محلي، وجوشن رفيع، ودرع حصينة، وبلبلة منيعة، وبيضة مذهبة، وبزة فاخرة، وصامت عتيد، وذخيرة شريفة، فتنخل منهم متولي التسور فجعلهم أسوة رأسهم في القتل، خر بعضهم يومئذ على بعض، في القتل، وأخذتهم السيوف، فحلوا بعد الشهرة، والتمثيل في أزقة المدينة، وإشاعة النداء في الجزيرة، ثاني رجب من العام المؤرخ به، وركب أسوق سايرهم الأداهم، واستخلصهم الإسار، وبارد بتوجيه رؤسهم، فنصبت من فوق العورة التي كان منها تسورهم القلعة، فمكثت بها إلى أن استنزلت ووريت، وانقضى أمره على هذه الوتيرة مشئوماً دبيراً، لم يمتعه الله بالنعيم، ولا هناه سكنى المحل الكريم، ولا سوغه راحة، ولا ملأه موهبة، ولا أقام على فضله حجة، ولا أعانه

على زلفة، إنما كان رئيس السراق وعريف الخراب، وإمام الشرار، ندر يوماص في نفسه، وقد رفعت إليه امرأة من البدو تدعى أنها سرقت دارها، قال: إن كان ليلا بعد ما سد باب الحمراء علي وعلى ناسي، فهي والله كاذبة، إذ لم يبق سارق في الدنيا، أو في البلاد، إلا وقد تحصل خلفه، وقانا الله المحن، وثبتنا على مستقر الرشد، ولا عاقنا عن جادة الاستقامة.

وزراء دولته

استوزر الوزير المشئوم ممدةً في الغي، الوغد، الجهول، المرتاش من السرقة، الحقود على عباد الله لغير علة عن سوء العاقبة، المخالف في الأدب سنن الشريعة، البعيد عن الخير بالعادة والطبيعة، دودة القز، وبغل طاحونة الغدر، وزق القطران، محمد بن إبراهيم بن أبي الفتح الفهري، فانطلقت يده على الإبشار، ولسانه على الأعراض، وعينه على النظر الشزر، وصدره على التأوه والرين، يلقى الرجال كأنه قاتل أبيه، محدقاً إلى كميه، يحترش بهما خبيئة، أو يظن بهما رشوة، فأجاب الله دعاء المضطرين، ورغبات السائلين، وعاجله بالأخذة الرابية، والبطشة القاضية فقبض عليه في ليلة السبت العاشر لرمضان من العام المذكور، وعلى ابن عمه العصر فوط وعلى الحيرا من نواهض بيتهما وأنفذ الأمر بتعريضهم، فمضى حكم الله بهذه المنية الفرعونية

فيهم لا تبديل لكلمات الله، قاهر الجبابرة، وغالب الغلاب، وجاعل العاقبة للمتقين. واستوزر بعده، أولى الناس وأنسبهم إلى دولته، وأحقهم بمظاهرته، المسوس الجبار اليأس والفطرة، المختبل الفكرة، القيل، المرجس، الحول، الشهير، الضجر، محمد بن علي بن مسعود، فميا يلي الناس على طول الحمرة، وانفساح زمان التجربة، أسوأ تدبيراً، ولا أشر معاملة، ولا أبذأ لساناً، ولا أكثر شكوى ومعاتبة، ولا أشح يداً، ولا أجدب خواناً، من ذلك المشئوم، بنعق البوم، ينعق بما لا يسمع، ويسرد الأكاذيب، ويسيء السمع، فيسيء الإجابة، ويقود الجيش فيعود بالخيبة، إلى أن كان الفرار، فصحبه إلى مصرعه، وكان ممن استؤثر به القيد الثقيل، والأسر الشديد، والعذاب الأليم، عادة بذلك عبد المالاخوينا، التي كان يحجب سمتها، زمان ترفيهه، فقضت عليه سيء الميتة، مطرح الجثة. سترنا الله بستره ولا سلبنا في الحياة، ولا في الممات ثوب عنايته.

كاتب سره

صاحبنا الفقيه الأهوج، قصب الريح، وشجرة الخور، وصوت الصدى، أبو محمد عبد الحق بن عطية، المستبد بتدبير الدبير، خطاً فوق الرقاع الجاهلة، ومسارةً في الخلوات الفاسقة، وصدعاً فوق المنابر

الكبيبة، بحلة لث الراية، ويذب عنه ذب الوالدة، ينتهي في الاعتذار عن هناته إلى الغايات القاصرة.

قضاته

شيخنا أبو البركات، قيس ليلى القضاء، المخدوع بزخرف الدنيا على الكبرة والعناء، لطف الله به، وألهمه رشده.

شيخ الغزاة على عهده:

إدريس بن عثمان بن إدريس بن عبد الحق بن محيو، بقية بيت الدبرة ووشيجة الشجرة المجتثة، عذب في الجملة من أهل بيته عند القبض عليهم، واستقر في القبض الأشهب من قبيله بالمغرب، مطلق الإقطاع، مرموقاً بعين التجلة، مكنوفاً بشهرة الأب، إلى أن سعى به إلى السلطان، نسيج وحده فارس بن علي، واستشعر البث فطار به الذعر لا يلوي عناناً، حتى سقط بإفريقية، وعبر البحر إلى ملك برجلونة، ثم اتصل بالدولة النصرية، بين إدالة الغدر، وإيالة الشر، فقلده الدائل مشيخة الغزاة، ونوه به، فاستراب معزله يحيى بن عمر، ففر إلى أرض الروم حسبما يذكر في اسمه، فقام له بهذا الوظيف، ظاهر الشهرة والأبهة، مخصوصاً منه بالتجلة، إلى أن كان ما كان من إزمانه وفراره، فوفى له وصحبه ركابه، وقاسمه المنسجة شق الأبلة، واستقر بعد قتله أسيراً عانياً علق الدهر، لضنانة العدو بمثله، إلى أن أفلت من

دون الأغلاق، وشد الوثاق، ولحق بالمسلمين في خبر لم يشتمل كتاب الفرج بعد الشدة على مثله، والأغراب منه، يستقر في اسمه إلماعٌ به، ثم استقر بالمغرب معتقلا. ثم مات رحمه الله.

من كان على عهده من الملوك:

وأولاً بمدينة فاس دار ملك المغرب، السلطان، الخير، الكريم الأبوة، المودود قبل الولاية، اللين العريكة، الشهير الفضل في الحياة، آية الله في إغراب الصنع، وإغراب الإدبار، أبو سالم إبراهيم بن علي بن عثمان بن يعقوب بن عبد الحق، أمير المسلمين، المترجم به في حرف الألف. ولما قتل يوم الحادي والعشرين لذي قعدة من عام اثنتين وستين، قام بالأمر بعده أخوه المتحيل أبو عامر تاشفين بن علي إلى أواخر صفر عام ثلاثة وستين، ولحق بالبلد الجديد، الأمير أبو محمد زيان بن الأمير أبي عبد الرحمن بن علي بن عثمان المترجم به في بابه، ثم المتولي من عام ثمانية وستين وسبعمائة السلطان أبو فارس عمه المؤمل للم الشعث، وضم النشر، وتجديد الأمر بحول الله، ابن السلطان الكبير المقدس، أبي الحسن بن سعيد بن يعقوب بن عبد الحق، وهو بعد متصل الحال إلى اليوم.

وبتلمسان الأمير أبو حمو، موسى بن يوسف بن عبد الرحمن بن يحيى ابن يغمر اسن بن زيان.

وبإفريقية الأمير الخليفة على عرفهم، إبراهيم بن أمير المؤمنين أبي يحيى ابن حفص.

وبقشتالة، بطره بن ألهنشة بن هراندة بن شانجه المصنوع له، ولي النعمة منه، ومستوجب الشكر من المسلمين لأجله، بإراحته منهم. وبرغون، بطره بن شانجه. وبرندة، مزاحمه بالملك الفخم، أمير المسلمين حقيقة، المرتب الحق، المعقود البيعة، وصاحب الكرة، وولي حسن العاقبة، مجتث شجرته الخبيثة، وصارخ إيالته الدنية، أبو عبد الله محمد بن أمير المسلمين أبي الحجاج، بن أمير المسلمين أبي الوليد بن نصر.

مولده

مولد هذه النسمة المشئومة أول يوم من رجب عام اثنين وثلاثين وسبعمائة.

وفاته

توفي قتيلاً ممثلا به بطيلاطه، من ظاهر إشبيلية، في ثاني من رجب عام ثلاثة وستين وسبعمائة، وسيقت رؤوس أشياعه، الغادرين مع رأسه إلى الحضرة فصلبت بها.

وفي ذلك قلت:

في غير حفظ الله من هامةٍ هام بها الشيطان في كل واد
لا خلفت ذكراً ولا رحمةً في فم إنسانٍ ولا في فؤاد

محمد بن يوسف بن قصر الخزرجي

هو محمد بن يوسف بن إسماعيل بن فرج بن إسماعيل بن فرج بن يوسف بن قصر الخزرجي.

أمير المسلمين لهذا العهد بالأندلس، صدر الصدور، وعلم الأعلام، وخليفة الله، وعماد الإسلام، وقدوة هذا البيت الأصيل، ونير هذا البيت الكريم، ولباب هذا المجد العظيم، ومعنى الكمال، وصورة الفضل، وعنوان السعد، وطاير اليمن، ومحول الصنع، الذي لا تبلغ الأوصاف مداه، ولا توفى العبارة حقه، ولا يجري النظم والنثر في ميدان ثنايه، ولا تنتهي المدائح إلى عليائه.

أوليته

أشهر من إمتاع الضحى، مستولية على المدا، بالغلة بالسعة بالانتساب إلى سعد بن عبادة عنان السماء، مبتجحة في جهاد العدا؛ بحالة من ملك جزيرة الأندلس، وحسبك بها، وهي بها في أسنى المزاين والحلى، وقدماً فيه بحسب لمن سمع ورأى.

حاله

هذا السلطان أيمن أهل بيته نقيبة، وأسعدهم ميلاداً وولاية، قد جمع الله له بين حسن الصورة، واستقامة البنية، واعتدال الخلق،

وصحة الفكر، وثقوب الذهن، ونفوذ الإدراك. ولطافة المسايل، وحسن التأني؛ وجمع له من الظرف ما لم يجمع لغيره، إلى الحلم، والأناة اللذين يحبهما الله، وسلامة الصدر، التي هي من علامة الإيمان، ورقة الحاشية، وسرعة العبرة، والتبرين في ميدان الطهارة والعفة، إلى ضخامة التنجد، واستجادة الآلات، والكلف بالجهاد، وثبات القدم، وقوة الجأشِ، ومشهور البسالة، وإيثار الرفق، وتوخي السداد، ونجح المحاولة. زاده الله من فضله، وأبقى أمره في ولده، وأمتع المسلمين بعمره. ساق الله إليه الملك طواعية واختياراً، إثر صلاة عيد الفطر على بغتة وفاة المقدس أبيه، من عام خمسة وخمسين وسبعمائة، لمخايل الخير، ومزية السن، ومظنة البركة، وهو يافع، قريب العهد بالمراهقة، فأنبته الله النبات الحسن، وسدل به الستر؛ وسوغ العافية، وهنأ العيش؛ فلم تشح في مدته السماء، ولا كلب الأعداء، ولا تبدلت الألقاب، ولا عونيت الشدائد، ولا عرف الخوف، ولا فورق الخصب، إلى أن كانت عليه الحادثة، ونابه التمحيص، الذي أكسبه الحنكة، وأفاده العبرة، فشهد بعناية الله في كف الأيدي العادية، وأخطأ ألم السهام الراشقة، وتخييب الآمال المكايدة، وانسدال أروقة الستر والعصمة، ثم العودة، الذي عرف الإسلام، بدار الإسلام قدرها، وتملأ عزها، ورجح وزنها، كما اختبر ضدها فرصة الملك، وشاع العدل، وبعد الصيت، وانتشر الذكر، وفاض الخير؛ وغزر القطر، فظهرت البركات،

وتوالت الفتوح، وتخلدت الآثار. وسيرد من بيان هذه الجمل، ما يسعه الترتيب بحول الله.

ترتيب دولته الأولى

إذ هو ذو دولتين، ومسوغ ولايتين، عززهما الله، بملك الآخرة، بعد العمر الذي يملأ صحايف البر، ويخلد حسن الذكر، ويعرف إلى الوسيلة، ويرفع في الرفيق الأعلى الدرجة، عند الله خير وأبقى للذين آمنوا، وعلى ربهم يتوكلون.

وزراؤه وحجابه أنتدب إلى النيابة عنه، والتشمير إلى الحجابة ببابه، الشيخ القايد المعتمد بالتجلة، المتحول من الخدام النبهاء، المتسود الأبوة، المخصوص بالفدح المعلى من المزية، المسلم له في خصوصية الملك والتربية، ظهير العلم والأدب، وأمين الجد، ومولى السلف، ومفرغ الرأي إلى هذا العهد، وعقد سفرة السلطان، وبقية رجال الكمال من مشيخة المماليك، وخيار الموالي، أبا النعيم رضوان رحمه الله، فحمد الكل، وخلف السلطان، وأبقى الرتب، وحفظ الألقاب، وبذل الإنصاف، وأوسع السكنف، واستدعى النصيحة، ولم يأل جهداً في حسن السيرة، وتظاهر المحض، وأفردني بالمزية وعاملني بما يرتد عنه جسر أطرف الموالاة والصحبة، ووفى لي الكيل الذي لا يقتضيه السن، والقربة من الاشتراك في الرتبة، والتزحزح عن الهضبة،

والاختصاص باسم الوزارة على المشهر والغيبة، والمحافظة على التشيع والقدمة، بلغ في ذلك أقصى الغايات. مدارج التخلق المأثور عن الجلة، والتودد إلى المرة بعد المرة، واختصصت بفوت المدة بالسلطان، فكنت المنفرد بسره دونه، ومفضي همه، وشفاء نفسه، فيما ينكره من فتنة تقع في سيرته، أو تصير توجيه السذاجة في معاملاته، وصلاح ما يتغير عليه من قلبه، إلى أن لحق بربه.

شيخ الغزاة ورئيس الجند الغربي لأول أمره:

أقر على الغزاة شيخهم على عهد أبيه، أبا زكريا يحيى بن عمر بن رحو بن عبد الله بن عبد الحق، مطمح الطواف، وموفي الاختيار، ولباب القوم، وبقية السلف. حزماً ودهاء، وتجربة وحنكة وجداً وإدراكاً ناهيك من رجل فذ المنازع، غريبها، مستحق التقديم، شجاعة وأصالة، ورأياً ومباحثة، نسابة قبيله، وأضحى قسهم، وكسرى ساستهم، إلى لطف السجية، وحسن التأني، لغرض السلطان، وطرق التنزل للحاجات، ورقة غزل الشفاعات. وإمتاع المجلس، وثقوب الذهن والفهم، وحسن الهيئة. وزاده خصوصية ملازمته مجلس الرفاع المعروضة. والرسل الواردة. وسيأتي ذكره في موضعه بحول الله تعالى.

كاتب سره قمت لأول الأمر بين يديه بالوظيفة التي أسندها إلي أبوه المولى المقدس، رحمه الله، من الوقوف على رأسه، والإمساك في

التهاني والمبايعة بيده. والكتابة والإنشاء والعرض والجواب. والخلعة والمجالسة، جامعاً بين خدمة القلم، ولقب الوزارة، معزز الخطط برسم القيادة، مخصوصاً بالنيابة عنه في الغيبة، على كل ما اشتمل عليه سور القلعة والحضرة، مطلق أمور الإيالة، محكماً في أشتاته تحيكم الأمانة، مطلق الجراية، ظاهر الجاه والنعمة. ثم تضاعف العز، وتأكد الرعي، وتمحض القرب، فنقلني من جلسة المواجهة، إلى صف الوزارة؛ وعاملني بما لا مزيد عليه من العناية، وأحلني المحل الذي لا فوقه في الخصوصية، كافأ الله فضله، وشكر رعيه، وأعلى محله عنده.

وأصدر لي هذا الظهير لثاني يوم ولايته: هذا ظهير كريم، صفي شربه. وسفرني في الرسالة عنه، إلى السلطان، الخليفة الإمام، ملك المغرب، وما إليه من البلاد الإفريقية، أبي عنان، حسبما يأتي ذكره. ثم أعفاني في هذه المدة الأولى، عن كثير من الخدمة، ونوه بي عن مباشرة العرض بين يديه بالجملة، فاخترت للكل والبدلة، وما صان عنه في سبيل التجلة، وإن كان منتهي أطوار الرفعة، الفقيه أبا محمد بن عطية، مستنزلاً عن قضاه وادي آش وخطابتها، فكان يتولى ما يكتب بنظري، وراجعاً لحكمى، ومترددا لبالي، مكفي المؤنة في سبيل الحمل الكلي، إلى وقوع الحادثة، ونفوذ المشيئة بتحويل الدولة.

قضاته حدد أحكام القضاء والخطابة لقاضي أبيه الشيخ الأستاذ الشريف، نسيج وحده، وفريد دهره، إغراباً في الوقار، وحسن السمت وأصالة البيت، وتبحراً في علوم اللسان، وإجهازاً في فصل القضايا، وانفراداً ببلاغة الخطبة، وسبقاً في ميدان الدهاء والرجاحة، أبي القاسم محمد بن أحمد بن محمد الحسني، الجانح إلى الإيالة النصرية من مدينة سبتة. وسيأتي التعريف به في مكانه إن شاء الله. وتوفي رحمه الله بين يدي حدوث الحادثة، فأرجئ الأمر بمكانه، إلى قدوم متلفق الكرة، ومتعاور تلك الخطة، الشيخ الفقيه القاضي، أبي البركات قاضي أبيه. ووليها الأحق بها بعده، إذ كان غايباً في السفارة عنه، فوقع التمحيص قبل إبرام الأمر على حال الإستنابة.

الملوك على عهده وأولهم بالمغرب، السلطان، الإمام، أمير المسلمين، أبو عنان ابن أمير المسلمين أبي الحسن بن أمير المسلمين أبي سعيد بن أمير المسلمين أبي يوسف يعقوب بن عبد الحق، البعيد الشأو في ميدان السعادة، والمصمى أغراض السداد، ومعظم الظفر، ومخول الموهبة، المستولي على آماد الكمال، عقلاً وفضلاً وأبهةً ورواءاً، وخطاً وبلاغة، وحفظاً وذكاء وفهماً وأقداماً، تغمده الله برحمته، بعثني إلى بابه رسولاً على إثر بيعته، وتمام أمره، وخاطباً إثره ووده، مسترفداً من منحة قبوله، فألفيت بشراً مبذولا، ورفداً ممنوحاً، وعزاً باذخاً،

يضيق الزمان عن جلالته، وتقصر الألسنة عن كنه وصفه، فكان دخولي عليه في الثامن والعشرين من شهر ذي قعدة عام خمسة وخمسين المذكور، وأنشدته بين يدي المخاطبة، ومضمن الرسالة:

خليفــــة الله ســـــاعد القـــــدر   عــلاك مــا لاح في الـدجا قمـر

فأحسب وكفى، واحتفل واحتفى، وأفضت بين يدي كرمته، إلى الحضور معه في بعض المواضع المطلة على مورد وحب. هاج به الخدام أسداً، أرود، شئن الكفين مشعر اللبدة، حتى مرق عن تابوت خشبي كان مسجونا به، من بعد إقلاعه، من بعض كواه، وأثارته من خلقه، واستشاط وتوقد بأساً. وجلب ثور عبل الشوى، منتصب المروى، يقدمه صوار من الجواميس، فقربت الخطا، وحميت الوغى، وبلغ الزئير والجوار ما شاء، في موقف من ميلاد الشيم العلي يخشى الجبان مقارعة العدا، ويوطن نفسه الشجاع على ملاقة الردى، وخار الأسد عن المبارزة، لما بلغ منه ثقافاً عن رد المناوشة، ومضطلعاً بأعباء المحاملة، فتخطاه إلى طائفة من الرجالة، أولى عدة، وذوي دربة، حمل نفسه متطارحاً كشهاب الرجم، وسرك الدجا، وأخذته رماحهم بإبادته، بعد أن أردى بعضهم، وجدل بين يدي السلطان، متخبطا في دمه. وعرض بعض الحاضرين، وأغرى بالنظم في ذلك، فأنشدته:

أنعــام أرضــك تقهــر الآســادا   طبعاً كسـا الأرواح والأجسـادا

وخصـايص لله بـث ضـروبها في الخلق ساد لأجلها من سادا
إن الفضـايل في حمـاك بضـايع لم تخش من بعد النفاق كسادا
كـان الهزبـر محـارباً فجزيتـه بجزاء من في الأرض رام فسادا
فـابغ المزيـد مـن آلايـه بشـكره وأرغـم بمـا خولتـه الحسـادا

فستحسن تأتى القريحة، وإمكان البديهة، مع قيد الصفة، وهيبة المجلس. وكان الانصراف بأفضل ما عاد به سفير، من واد أصيل، وإمداد موهوب، ومهاداة أثيرة وقطار مجنوب، وصامت محمول، وطعمة مسوغة. وكان الوصول في وسط محرم من عام ست وخمسين وسبعماية، وقد نجح السعي، وأثمر الجهد، وصدقت المخيلة، وقد تضمن رحلى الوجهة، والأخرى قبلها جزء. والحمد لله الذي له الحمد في الأولى والآخرة. وتوفي زعموا بحيلة، وقيل حتف أنفه، لما نهكه المرض، وشاع عنه الإرجاف، وتنازع ببابه الوزراء، وتسابق إلى بابه الأبناء. وخاف مدبر أمره، عايدة ملامته، على توقع برئه، وكان سيفه يسبق على سوطه، والقبر أقرب إلى من تعرض لعتبه من سجنه، فقضى موضع هذا السبيل خاتمة الملوك الجلة، من أهل بيته.

جدد الملك، وحفظ الرسوم، وأجرى الألقاب، وأغلظ العقاب، وصير إيالته أضيق من الخد. وأمد الأندلس، وهزم الأضداد، وخلد الآثار، وبنى المدارس والزوايا، واستجلب الأعلام. وتحرك إلى تلمسان فاستضافها إلى إيالته، ثم ألحق بها قسنطينة وبجاية، وجهز أسطوله إلى

تونس، فدخلها وتملكها ثقاته في رمضان عام ثمانية وخمسين وسبعمائة، واستمرت بها دعوته إلى ذي قعدة من العام، رحمة الله عليه. وكانت وفاته في الرابع عشر لذي حجة من عام تسع وخمسين وسبعمائة. وصار الأمر إلى ولده المسمى بالسعيد، المكنى بأبي بكر، مختار وزيره ابن عمر الفدووي.

ورام ضبط الإيالة المشرقية فأعياه ذلك، وبايع الجيش الموجه إليها منصور بن سليمان، ولجأ الوزير وسلطانه إلى البلد الجديد، مثوى الخلافة المرينية، فكان أملك بها. ونازله منصور بن سليمان، ثم استفضى إليه أمر البلد لحزم الوزير وقوة شكيمته. وغادر السلطان أبو سالم إبراهيم بن السلطان أبي الحسن أخو الهالك السلطان أبي عنان الأنلسي، وقد كان استقر بها بإبعاد أخيه إياه عن المغرب، كما تقدم في اسمه، فطلع على الوطن الغربي بإعانة من ملك النصارى، عانى فيها هولاً كثيراً، واستقر بآخرة بعد إخفاق شيعته المراكشيةِ، بساحل طنجة، مستدعي ممن بجبال غمارة، ودخلت سبتة وطنجة في طاعته.

وفر الناس عن منصور بن سليمان، ضربة لازب، وتقبض عليه وعلى ابنه، فقتلا صبراً، نفعهما الله. وتملك السلطان أبو سالم المدينة البيضاء يوم الخميس عشر لشعبان عام ستين وسبعمائة، بنزول الوزير

وسلطانه عنها إليه. ثم دالت الدولة. وكان من لحاق السلطان برندة، واستعانته على رد ملكه ما يأتي في محله، والبقاء لله سبحانه.

وبتلمسان السلطان أبو حمو موسى بن يوسف بن يحيى بن عبد الرحمن بن يغمراس بن زيان، قريب العهد باسترجاعها، لأول أيام السعيد.

وبتونس الأمير إبراهيم بن الأمير أبي بكر بن الأمير أبي حفص بن الأمير أبي بكر ين أبي حفص بن إبراهيم بن أبي زكريا يحيى بن عبد الواجد، لنظر الشيخ رأس الدولة، وبقية الفضلاء، الشهير الذكر، الشائع الفضل، المعروف السياسة، أبي محمد عبد الله بن أحمد بن تأفراقين. تحت مضايقة من عرب الوطن.

ومن ملوك النصارى بقشتالة، بطره بن ألهنشة بن هراندة بن شانجه بن ألفنش بن هراندة، إلى الأربعين، وهو كما اجتمع وجهه، تولى الملك على أخريات أيام أبيه في محرم عام أحد وخمسين وسبعمائة. وعقد معه سلم على بلاد المسلمين. ثم استمر ذلك بعد وفاته في دولة ولداه المترجم به، وغمرت الروم. وألقت العصا، وأغضت القضاء، وأجالت على الكثير من الكبار الردى، بما كان من إخافته ساير إخواته لأبيه، من خاصته، العجلة الغالبة على هواه، فنبذوه على سوء بعد قتلهم أمهم، وانتزوا عليه بأقطار غرسهم فيها أبوهم قبل موته

بمرعية أمهم. وسلك لأول أمره سيرة أبيه في عدوله عن عهوده بمكابيه لمنصبه، إلى اختصاص عجلة، أنف بحراه كبار قومه، من أجل ضياع بذره وانقراض عقبه، فمال الخوارج عليه، ودبروا القبض عليه، وتحصل في أنشوطة، يقضي أمره بها إلى مطاولة عقله أو عاجل خلع، لولا أنه أفلت وتخلص من شراراها. فاضطره ذلك إلى صلة السلم، وهو الآن بالحالة الموصوفة.

الأحداث في أيامه:

لم يحدث في أيامه حدث إلا العافية المسحة والهدنة المتصلة، والأفراح المتجددة، والأمنة المستحكمة، والسلم المنعقدة. وفي آخر جمادى عام ست وخمسين وسبعمائة لحق بجبل الفتح فشمم شعبته، وأبر متبوته، كان على ثغره العزيز على المسلمين، من لدن افتتاحه، الموسوم الخطة، المخصوص بمزية تشييده، عيسى بن الحسن بن أبي منديل، بقية الشيوخ أولي الأصالة والدهاء، والتزيي بزي الخير، والمثل الساير في الانسلاخ من آية السعادة، والإغراق في سوء العقبى. والله غالب على أمره، فكان أملك بمصامه، وقر عينه بلقاء ولده، والتمتع منه بجواد عتيق. ملي من خلال السياسة، أرداه سوء الحظ، وشؤم النصبة، وأظلم ما بينه وبين سلطانه، مسوغه برداء العافية على تفه صغر، وملبسه رداء العفة على قدح الأمور، أبدى منها الخوف على

ولده، وعرض ديسم عزمه، على ذوبان الجبل، فاتحطوا في هواه، وغروه بكاذب عصبة، فأظهر الامتناع سادس ذي قعدة من العام المذكور، واتصلت الأخبار، وساءت الظنون، وضاقت الصدور، ونكست الرؤوس لتوقع الفاقرة، بانسداد باب الصريخ. وانبتات سبب النصرة. وانبعاث طمع العدو واتحطت الأطماع في استرجاعه واستقالته، لمكان حصانته، وسمو الذروة، ووفور العدة، ووجود الطعمة، وأخذه بتلاشي الفرصة. ثم ردفت الأخبار بخروج جيشه صحبة ولده إلى منازلة أشتبونة، وإخفاق أمله فيها. وامتساك أهلها بالدعوة، وانتصافهم من الطائفة العادية؛ فبودر إليها من مالقة بالعدد. وخوطب السلطان من ملك المغرب أيده الله بالجلية، فتحققت المنابذة، واستقرت الظنون. وفي الخامس والعشرين من شهر ذي قعدة، ثار به أهل الجبل وتبرأ منه أشياعه، وخذلوه بالفرار، فأخذت شعابه ونقابه، فكر راجعاً أدراجه إلى القاعدة الكبيرة. وقد أعجله الأمر، وحملته الطمأنينة على إغفال الاستعداد بها. وكوثر فألقى به، وقد لحق به بعض الأساطيل بسبتة. لداعي تسور توطي على إمارته، فقيد هو وأبنه، وخيض بهما البحر للحين: ولم ينتطح فيها عنزان، رحمه الله، سنام فئة ألقت بركها، وأناخت بكلكلها، وقد قدر أنها واقعة، ليس لها من دون الله كاشفة، فقد كان من بالجبل برموا على إيالة ذينك المرتسمين.

وألقوا أجوارها، وأعطوهما الصفقة، بما أطمعهما في الثورة، ولكل أجل كتاب. واحتمل إلى الباب السلطاني بمدينة فاس، وبرز الناس إلى مباشرة إيصالهما مجلوبين في منصة الشهرة، مرفوعين في هضبة المثلة. ثم أمضى السلطان فيهما حكم الفساد، بعد أيام الحرابة، فقتل أشيخ بخارج باب السمارين من البلد الجديد. بأيدي قرابته، فكان كما قال الأول:

أضحت رماح بني أبيه تنوشه لله أرحام هناك تشقق

وقطهن رجل الولد ويده. بعد طول عمل وسوء تناول، ولم ينشب أن استنفذه حمامه فأضحى عبرة في سرعة انقلاب حالهما من الأمور الحميدة، حسن طلعة، وذياع حمد، وفضل شهرة. واستفاضة خيرية، ونباهة بيت، وأصالة عز، إلى ضد هذه الخلال، وقانا الله مصارع السوء، ولا سلب عنا جلباب الستر والعافية.

وسد السلطان ثغر الجبل بآخر من ولده اسمه السعيد، وكنيته أبو بكر، فلحق به في العشر الأول من المحرم من عام سبعة وخمسين وسبعمائة، ورتب له بطانته، وقدر له أمره، وسوغه رزقاً رغداً، وعيشاً خفضاً. وبادر السلطان المترجم له، إلى توجيه رسوله؛ قاضياً حقه، مقرر السرور بجواره، وأتبع ذلك ما يليق من الحال من بر ومهاداة

ونزل، وتعقبت بعد أيام المكافآت، فاستحكم الود، وتحسنت الألفة إلى هذا العهد. والله ولي توفيقهم ومسني الخير والخيرة على أيديهم.

الحادثة التي جرت عليه:

واستمرت أيامه كأحسن أيام الدول، خفض عيش، وتوالى خصب، وشياع أمن، إلا أن شيخ الدولة القايد أبا النعيم رحمه الله، أضاع الحزم. وإذا أراد الله إنفاذ قضايه وقدره، سلب ذوي العقول عقولهم، بما كان من أمنه جانب القصر الملزم دار سكناه، من علية فيها أخو السلطان، بتهاونه يحيل أمه المداخلة في تحويل الأمر إليه، جملة من الأشرار، دار أمرهم على زوج ابنتها اللائيس محمد بن إسماعيل بن فرج من القرابة الأخلاف، وإبراهيم بن أبي الفتح. والدليل الموروري. وأمدته بالمال، فداخل القوم جملة من فرسان القيود، وعمرة السجون، وقلاميد الأسوار. وكانت تتردد إليه في سبيل زيارة بنتها الساكنة في عصمة هذا الخبيث، المنزوع العصمة، خارج القلعة حتى تم يوم الأربعاء الثامن والعشرين لرمضان من العام، اجتمعوا وقد خفى أمرهم، وقد تألفوا عددا يناهز المائة بالقوس الداخل من وادي هداره إلى البلد، لصق الجناح الصاعد منه إلى الحمراء، وكان بسورها ثلم، لم يتم ما شرعوا فيه من إصلاحه؛ فنصبوا سلماً أعد لذلك، وصعدوا منه. ولما استوفوا، قصدوا الباب المضاع المسلحة، للثقة بما قبل؛ فلما

تجاوزوه أعلنوا بالصياح، واستغلظوا بالتهويل. وراعوا الناس بالاستكثار من مشاعل الخلفاء، فقصدت طايفة منهم دار الشيخ القايد أبي النعيم؛ فاقتحمته غلاباً وكسرت أبوابه؛ وقتلته في مضجعه، وبين أهله وولده، وأنتهبت ما وجدت به.

وقصدت الأخرى دار الأمير، الذي قامت بدعوته، فاستنجزته واستولت على الأمر. وكان السلطان متحولاً بأهله إلى سكني جنة العريف خارجِ القلعة، فلما طرقه النبأ، وقرعت سمعه الطبول سدده الله؛ وساند أمره في حال الحيرة، إلى امتطاء جواد كان مرتبطاً عنده في ثياب تبذله ومصاحباً لأفراد من ناسه؛ وطار على وجهه، فلحق بوادي آش قبل سبوق نكبته، وطرق مكانه بأثر ذلك، فلم يلف فيه، واتبع فاعيا المتبع. ومن الغد، استقام الأمر لأولي الثورة، واستكملوا لصاحبهم أمر البيعة، وخاطبوا البلاد فألقت إلى صاحبهم أمر البيعة، وخاطبوا البلاد فألقت إلى صاحبهم بالأزمة، وأرسلوا إلى ملك النصارى في عقد الصلح.

وشرعوا في منازلة وادي أش، بعد أنثبت أهلها مع المعتصم بها، فلازمته المحلات وولي عليه التضييق. وخيف فوات البدر ونفاد القوة، فشرع السلطان في النظر نفسه، وخاطب السلطان أبا سالم ملك المغرب في شأن القدوم عليه، فتلقاه بالقبول وبعث من يمهد الحيث في

شأنه، فتم ذلك ثاني يوم عيد النحر من العام. وكنت عند الحادثة على السلطان، ساكناً بجنتي المنسوبة إلي من الحضرة، منتقلاً إليها بجملتي، عادة المترفين، إذ ذاك من مثلي، فتخطائى الحتف، ونالتني النكبة، فاستأصلت النعمة العريضة، والجدة الشهيرة، فما ابتقت طارفاً ولا تليداً، ولا ذرت قديماً ولا حديثاً، والحمد لله مخفف الحساب، وموقظ أولي الألباب، ولطف الله بأن تعطف السلطان بالمغرب إلى شفاعة بي بخطه، وجعل أمري من فصول قصده. ففكت عني أصابع الأعداء، واستخلصت من أنيابهم، ولحقت بالسلطان بوادي آش. فذهب البأس، واجتمع الشمل. وكان رحيل الجميع ثاني عيد النحر المذكور، فكان النزول بفحص ألفنت، ثم الانتقال إلى لوشة، ثم إلى أنتقيه، ثم إلى ذكوان، ثم إلى مربلة يضم أهل كل محل من هذه مأتماً للحسرة، ومناحة للفرقة. وكان ركوب البحر صحوة الرابع والعشرين من الشهر، والاستقرار بمدينة سبتة، وكفى بالسلامة غنما، والأرض لله يورثها من يشاء من عباده، والعاقبة للمتقين.

وكان الرحيل إلى باب السلطان، تحت بر لا تسعه العبارة، ولقاؤنا إياه بظاهر البلد الجديد لإلمام ألم عاقه عن الإصحار والتغني على البعد، يوم الخميس السادس لمحرم من عام أحد وستين بعده. في مركب هايل، واحتفال رايع رايق، فعورض فيه النزول عن الصهوات،

والبر اللايق بمناصب الملوك، والوصول إلى الدار السلطانية، والطعام الجامع للطبقات وشيوخ القبيل. وقمت يومئذ فوق رأس السلطان وبين يدي مؤمله، فأنشدته مغرياً بنصره، كالوسيلة بقولي:

سلا هل لديها من مخبرة ذكر   وهل أعشب الوادي ونم به الزهر

فهاج الامتعاض، وسالت العبرات، وكان يوماً مشهوداً، وموقفاً مشهوراً، طال به الحديث، وعمرت به النوادي، وتوزعتنا النزايل على الأمل، شكر الله ذلك وكتبه لأهله، يوم الافتقار إلى رحمته. واستمرت الأيام، ودالت الدولة للرئيس بالأندلس، والسلطان تغلبه المواعيد، وتونسه الآمال، والأسباب تتوفر، والبواعث تتأكد. وإذا أراد الله أمراً هيأ أسبابه، واستقرت بي الدار بمدينة سلا، مرابطاًن مستمتعاً بالغيبة، تحت نعمة كبيرة، وإعفاء من التكليف.

وفي اليوم السابع لشوال من عام التاريخ، قعد السلطان بقبة العرض بظاهر جنة المصارة لتشييعه، بعد اتخاذ ما يصلح لذلك؛ من آلة وحلية، وقد برز الخلق، لمشاهدة ذلك الموقف المسيل للدموع، الباعث للرقة. المتبع بالدعوات، لما قذف الله في القلوب من الرحمة، وصحبه به في التغرب من العناية، فلم تنب عنه عين، ولا حمل له موكب، ولا تقلصت عنه هيبة، ولا فارقته حشمة، كان الله له في الدنيا الآخرة. وأجاز، واضطربت الأحوال. بما كان من هلاك معينه السلطان

أبي سالم، وغدر الخبيث المؤتمن على قلعته به، عمر بن عبد الله بن علي، صعر الله حزبه، وخلد خزيه، وسقط في يده، إلا أنه ثبتت في رندة من إيالة الأندلس، الراجعة إلى إيالة المغرب، قدمه، فتعلل بها، وارتاش بسببها، إلى أن فتح الله عليه، وسدد عزمه، وأراه لما ضعفت الحيل صنعه، فتحرك إلى بر مالقة، وقد فغر عليها العدو فمه، ثم أقبل على مالقة، مستميتاً دونها، فسهل الله الصعب، وأنجح القصد، واستولى عليها، وأنثالت عليه لحيتها البلاد، وبدا الريس المتوثب على الحضرة، بعد أن استوعب الذخيرة والعدة، في جملة ضخمة ممن خاف على نفسه، لو وفى بذمة الغادر وعهده، واستقر بنادي صاحب قشتالة، فأخذه بجريرته، وحكم الحيلة في جنايته وغدره، وألحق به من شاركه في التسور من شيعته، ووجه إلى السلطان بؤوسهم تبع رأسه. وحث السلطان أسعده الله خطاه إلى الحضرة، يتلقاه الناس، مستبشرين، وتتزاحم عليه أفواجهم مستقبلين مستغفرين، وأحق الله الحق بكلماته، وقطع دابر الكافرين.

وكان دخول السلطان دار ملكه، وعوده إلى أريكة سلطانه، وحلوله بمجلس أبيه وجده، زوال يوم السبت الموفي عشرين لجمادى الثانية من عام ثلاثة وستين وسبعمائة، وجعلنا الله من هم الدنيا على حذر، وألهمنا لما يخلص عنده من قول وعمل. وتخلف الأمير وولده

بكره، أسعده الله، بمدينة فاس فيمن معه من جملة، وخلفه من حاشية. ولد المستولي على ملك المغرب في إمساكه إلى أن يسترجع رندة في معارضة هدفه. ثم إن الله جمع لأبيه بجمع شمله، وتمم المقاصد بما عمه من سعده. وكان وصولي إليه معه، في محمل اليمن والعافية، وعلى كسر التيسير من الله والعناية يوم السبت الموفي عشرين شعبان عام ثلاثة وستين وسبعمائة.

الجهاد في شعبان من عام سبعة وستين وسبعمائة

اقتضى نظر الحزم، ورأى الاجتهاد للإسلام، إطلاق الغارات على بلد الكفرة من جميع جهات المسلمين، فعظم الأثر، وشهر الذكر، واكتسحت الماشية، وألحم السيف. وكان ثغر برغة، الفايزة به يد الكفرة، لهذا السنين القريبة، قد أهم القلوب، وشغل النفوس، وأضاق الصدور، لانبتات مدينة رندة، بحيث لا يخلص الطيف، ولا تبلغ الرسالة من الطير وغيرها إلى ناحية العدو. فوقع العمل على قصده، واستعانة الله عليه، واستنفر لمنازلته أهل الجهات الغربية من مالقة ورندة، وما بينهما، ويسر الله في فتحه، بعد قتال شديد، وحرب عظيمة، وجهاد شهير، واستولى المسلمون عليه، فامتلأت أيديهم أثاثاً وسلاحاً ورياشاً وآلة، وطهرت للحين مساجده، وزينت بكلمة الله مشاهده وأنست بالمؤمنين معاهده ورتبت فيه الحماة والرماة، والفرسان

الكماة، واتصلت بفتحة الأيدي، وارتفعت العوايق، وأوضحت بين المسلمين وأخوانهم السبل، والحمد لله. وتوجهت بفتحه الرسايل، وعظمت المنن الجلايل، وفر العدو لهذا العهد عن حصن السهلة، من حصون الحفرة اللويشية، وسد الطريق الماثلة، وذلك كله في العشر الأوسط لشعبان من هذا العام. ثم أجلب المسلمون في يرندة في أخرياته وقصدوا باغة وجيرة فاستنزلوا أهلها، وافتتحوها، فعظمت النعمة، واطرد الفتح، واتسعت الجهة.

وكانت مما خوطبت به الجهة المرينية من إملائي:

"المقام الذي نبشره بالفتح ونحييه، ونعيد له خبر المسرة بعد أن نبديه؛ ونسأل الله أن يضع لنا البركة فيه. ونشرك مساهمته فيما نهصره من أغصان الزهور ونجنيه ونعلم أن عزة الإسلام وأهله أسنى أمانيه، وإعانتهم أهم ما يعنيه. مقام محل أخينا الذي نعظم قدره، ونلتزم بره، ونعلم سره في مساهمة المسلمين وجهره؛ السلطان الكذا، الذي أبقاه الله في عمل الجهاد ونيته؛ متكلفة بنشر كلمة الله طويته، متممة من ظهور الدين الحنيف أمنيته، معظم جلاله، ومجزل ثنايه، ومؤمل عادة احتفاله بهذا الوطن الجهادي واعتنايه، أيد الله أمره، وأعز نصره. سلام كريم عليكم، ورحمة الله وبركاته. أما بعد حمد الله، واصل سبب الفتوح، ومجزل مواهب النصر الممنوح.

ومؤيد الفية القليلة بالملايكة والروح، والصلاة والسلام على سيدنا ومولانا محمد نبيه، الآتي بنور الهدى بين الوضوح، الداعي من قبوله ورضوانه إلى المنهل المورود والباب المفتوح، الرضا عن آله وأصحابه، أسود السروج، وحماة السروج، والمقتفين نهجه في جهاد عدو الله بالعين القارة والصدر المشروح، والدعاء لمقامكم العلي بالعز الرفيع الصروح فإنا كتبناه إليكم، كتب الله لكم سبوغ المواهب، ووضوح المذاهب وعزة الجانب، وظفرة الكتايب، من حمراء غرناطة حرسها الله، ونعم الله واكفة السحايب، كفيلة بنيل الرغايب، والله يصل لنا ولكم عوارف اللطايف، ويجعل الشهيد دليلاً على الغايب. وإلى هذا وصل الله إزازكم، وحرس أحوازكم وعمر بالحقيقة من أمراد مجازنا ومجازكم.

فإنا بادرنا تعريفكم بما فتح الله علينا من الثغر العزيز على الإسلام، العايد رزؤه الفادح على عبادة الأصنام، ركاب الغارات، وممكن حياة المضرات، ومخيف الطريق السابلة؛ والمسارح الآهلة، حصن برغة ويسر الله في استرجاعه مع شهرة امتناعه، وتطهر من دنس الكفار وأنيرت مئذنته بكلمة الشهادة الساطعة الأنوار، وعجلنا ذلك على حين وضعت الحرب فيه أوزارها، ووفت الأوتار أوبارها، فسار الكتاب إليكم، وأجير الأجر لم يجف عرقه، وعذر الاستعجال لأحبة

طرقه. ولما عدنا إلى حضرتنا، بعد ما حصناه وعمرناه، وأجزلنا نظر الحزم له وفرقناه.

لم تكد البنود لمسرة فتحه أن تعاد إلى أماكن صونها، مرتقبة عادة الله ف يعونها، حتى طرقت الأنباء السارة بتوالي الصنع وانفراده بتشفيع أفراده، وذلك أن أهل رندة حرسها الله، نافسوا جيرانهم من أهل مالقة، كان الله لجميعهم، وتولى شكر صنيعهم، فيما كان من امتيازهم بحصن برغة، الجار المصاقب لها، فحميت هممهم السنية، وهانت في الله موارد المنية، وتضافر العمل والنية، وظهر نجح المقاصد الدينية في إتاحة الفتح الهنية، فوجهوا نحو حصن وحبر، وهو الداين صحر المدينة ونحرها. والعدو الذي لا يفتر عن ضرها، والحية الذكر التي هي مروان أمرها؛ ففتحوه بعون الله وقوته، وتهنوا بعده سلوك الطريق، وإشاعة الريق، ومراصد الحرس. ومجلوا الجرس، وأنصفوا، وانصرفوا إلى حصن باغة، من مشاهد تلك الحفرة، فناشبوه القتال، وأذاقوه الوبال، وفوقوا إليه النبال، ففتحة الله فتحاً هيناً. لم تفت فيه للمسلمين نفس ولا تطرق لنصر التيسير لبس، فقابلنا بها لشكر هذه النعم المتوالية، والمنن المتقدمة والتالية.

وأعدنا الأعلام إلى مراكزها المشرفة المراقب، والطبول إلى قرعها عملاً من الإشارة بالواجب، وشكرنا الله على اتصال المواهب،

ووضوح المذاهب، وخاطبنا مقامكم الذي ترى الصنايع متواترة بنيته الصالحة وقصده، ويعتد في الحرب والسلم بمجده، علماً بأن هذه المسرات، نصيبكم منها النصيب الأوفى؛ وارتياحكم أي لمثلها لا يخفى، ونحن نرقب ما تنجلي عنه هذه النكايات، التي تفتت كبد العدو تناليها، وتروع أحوازه وما يليها، ولا بد له من امتعاض يروم به صرع المعرة، ويأبى الله أن ذلك يأتي بالكرة، والله يجعلها محركان لحتفه المرقوب، وحينه المجلوب، ويحقق حق القلوب، في نصرة المطلوب، عرفنا كم بما تريدون عملاً بواجب بركم، ومعرفة بقدركم، وما يتزايد نعرفكم به، ويتصل سبب التأكيد والتعجيل بسببه والسلام".

الغزاة إلى حصن أشر:

وفي أوائل شهر رمضان بعده. أعمل السلطان الحركة السعيدة إلى حصن أشر، وهو قفل الثغر الذي فضه الطاغية، وسورها الذي فرغه الكفر. وجارحه المحلق على البلاد. والمتحكم لو لا فضل الله في الأموال والأولاد، فتأذن الله برد مغتصبه، والشفا من وصبه، وأحاط به وناصبه الحرب، ففتحة الله على يده عنوة. على سمو ذروته، وبعد صيته وشهرته، واختيار الطاغية في حاميته بعد حرب لم يسمع بمثله، فاز بمزية الحمد فيها السلطان، لمباشرته إياها بنفسه، وحمل كلها فوق كاهله، واتقاد ما خمد من الحمية بتحريضه. ثم لما كان بعد الفتح من

استخلاص القصبة وسد ثلمها بيده، ومصابرة جمو القيظ عامة يومه، فجاز ذكراً جميلاً وحل من القلوب محلا أثيراً، ورحل منها، بعد أن أسكن بها من الفرسان رابطة متخيرة، ومن الرماة جملة، وتخلف سلاحاً وعدة، فكان الفتح على المسلمين. في هذا المعقل العزيز عليهم جليلاً، والمن من الله جزيلا، والصنع كثيراً. في هذا المعقل العزيز عليه جليلاً، والمن من الله جزيلا، والصنع كثيراً، وصدرت الخاطبة للمغرب بذلك، على الأسلوب المرسل الخلي من السجع الغني.

الغزاة المعملة إلى أطريرة في شهر شعبان من عام ثمانية وستين وسبعمائة، كانت الحركة إلى مدينة أطريرة بنت إشبيلية. وبلدة تلك الناحية الآمنة. مهاد الهدنة البعيدة عن الصرمة، حرك إليها بعد المدى،وآثرها بمحض الردى، من بين بلاد العدا، ما أسلف به أهلها المسلمين، من قتل أسراهم في العام قبله. فنازلها السلطان أول رمضان، وناشبها الحرب واستباح المدينة وربضها عنوة. ولجأ أهلها إلى قصبتها المنيعة، ذات الأبراج المشيدة، وأخذ القتال بمخنقهم، وأعان الزحام على استنزالهم، فاستتنزلوا على حكم المسلمين، فيما يناهز خمسة، بما لم يتقدمه عهد؛ ولا اكتحلت به في هذه المدة عين. ولا تلقته عنها أذن، وامتلأت أيدي المسلمين، بما لم يعامله إلى الله، من شتى الغنايم، وأنواع الفوايد، واقتسم الناس السبي رنعاً على الأكفال

والظهور، وتقديرا بقدر الرجال، وحملا فوق الظهور للفرسان، وعمرانا للسروج والأعضاد بالصبية، وبرز الناس إلى ملاقاة السلطان. في هول من العز شهير من الفخر، وبعيد من الصيت، قرت له أعينهم، وقعد لبيعتهم أياماً تباعاً، وملأبهم البلاد هدايا وتحفاً والحمد لله وصدرت المخاطبة بذلك إلى السلطان بالمغرب بما نصه من الكلام المرسل من إنشائي.

الغزاة إلى فتح جيان وفي آخر محرم من عام تسعة وستين وسبعمائة، كانت الحركة الكبرى إلى مدينة جيان، إحدى دور الملك، ومدن المعمود، وكرسية الإمارة، ولوان المدن الشهيرة، افتتحها الله عنوة، ونقل المسلمون ما اشتملت عليه من النعم والأقوات والأموال والأنعام والأثواب والدواب والسلاح، ومكنهم من قتل المقاتلة، وسبي الذرية، وتخريب الديار، ومحو الآثار، واستنساف النعم، وقطع الأشجار. وهذا الفتح خارق. تعالى أن يحيط به النظم والنثر، فذكره أطير، وفخره أشهر، وصدرت في ذلك المخاطبة من إملائي إلى ملك المغرب. وأصاب الخلق عقب القفول في هذه الغزاة. مرض وافد، فشا في الناس كافة، وكانت عاقبته السلامة، وتدارك الله بلطفه، فلم يتسع المجال لإنشاد الشعراء، ومواقف الإطراء، إلى شغل عن ذلك.

الغزاة إلى مدينة أبدة وفي أو لربيع الأول من هذا العام، كان الغزو إلى مدينة أبدة، واحتل بظاهرها جيش المسلمين، وأبلى السلطان في قتالها، وقد أخذت بعج جارتها جيان أقصى أهبة. واستعدت بما في الوسع والقوة، وكانت الحرب بها مشهورة. وافتتحها للمسلمون فانتهبوها، وأعفوا مساكنها العظيمة البناء، وكنايسها العجيبة المرأى، وألصفوا أسوارها بالثرى، ورأوا من سعة ساحتها، وبعد أقطارها، وضخامة بناها، ما يكذب الخبر فيه المرأى، ويبلد الأفكار، ويحير النهي. ولله الحمد على آلايه التي لا تحصى. وقفل المسلمون عنها، وقد أخربوها، بحيث لا تعمر رباعها، ولا تأتلف حجورها وجموعها. وصدرت المخاطبة بذلك إلى صاحب المغرب من إنشائي بما نصه:

وإلى هذا العهد جرت الحادثة على ملك قشتالة، بطره بن أدفونش بن هراندة بن شانجه، وهو الذي تهيأ به الكثير من الصنع للمسلمين، بمزاحمة أخيه أندريق في الملك وتضييقه عليه، وحياز سبعة من كبار أصحابه، وأهل ملته إليه، وافتقار بطره المذكور إلى إعانة المسلمين، وإجلابهم على من آثر طاعته ضده، فانهزم بظاهر حصن منتيل، ومعه عدد من فرسان المسلمين، ولجأ إلى الحصن على غير أهبة ولا استعداد، فأخذ أخوه الذي هزمه بمخنقه، وأدار على الحصن البنا، وفر جيش المحصور، فاجتمع فله بأحواز أبدة، وراسلوا المسلمين في

مظاهرتهم على استنقاذهم، فتوجهت الفتيا بوجوب ذلك. ووقع الاستنفار والاحتشاد حرصاً على تخليثه، لسبب بقاؤه بقاء الفتنة تستأصل الكفر، ونشغل بعض العدو ببعضه.

وفي أثناء هذه المحاولة تباطن الحاين المحصور بمن معه، وبعد عليه الخلاص من ورطته، ومساهمة المسلمين إياه في محنته؛ وانقطعت عنه الأنباء بفرج من كربته، فداخل بعض أمراء أخيه وظهراه، ممن يباشر حصاره، وكان قومساً شهيراً من المدد الذي ظاهره، من أهل إفرنسية، ووعده بكل ما يطمع من مال ومهد، وتوفية عهد. فأظهر له القبول وأضمر الخديعة. ولما نزل إليه سجنه ومن لحق به من الأدلاء وأولى الحرة بالأرض وأمسكه، وقد طير الخبر إلى أخيه، فأقبل في شرذمة من خواصه وخدامه، فهجم عليه وقتله، وأوس العفو من كان محصوراً معه، وطير إلى البلاد برأسه، وأوغر التبن في جثته، ولبس ثياب الحزن من أجله، وإن كان معترفاً بالصواب في قتله، وخاطب البلاد التي كانت على مثل الجمر من طاعة، الجاهر بمظاهرة المسلمين، وما جر ذلك من افتتاح بلادهم، وتخريب كنايسهم، والإتيان على نعمهم، فأجابته ضربة، وانفقت على طاعته، فلم يختلف عليه منها اثنان، إلا ما كان من مدينة قرمونة. واجتمعت كلمة النصارى، ووقع ارتفاع شتاتهم، وصرفوا وجوههم إلى المسلمين، وشاع استدعاؤهم جميع من

بأرض الشرق من العدو والثقيل ببرجلونة، وعدو الأشبونة، والعدو الثقيل الوطأة بإفرانسية. وقد كان الله جل جلاله، ألهم أهل البصاير النظر في العواقب، والفكر فيما بعد اليوم أعمل. ووقع لي إذن السلطان، المخلى بيني وبين النصائح، في مخاطبة سلطان النصارى المنكوب لهذا العهد، فأشرت عليه بالاحتراز من قومه، والتفطن لمكايد من يحطب في حبل أخيه، وأريته اتخاذ معقل بحرز ولده وذخيرته، ويكون له به الخيار على دهره، واستظهرت له على ذلك بالحكايات المتداولة، والتواريخ المعروفة، لتتصل الفتنة بأرضهم، فقبل الإشارة وشكر النصيحة، واختار لذلك مدينة قرموتة، المختصة بالجوار المكتب، من دار ملكهم إشبيلية، فشيد هضابها، وحصن أسوارها، وملأها بالمخازن طعاماً وعدة، واشتكثر من الآلات، واستظهر عليها بالثقات، ونقفل إليها المال والذخيرة، وسجن بها رهان أكابر إشبيلية، وأسرى المسلمين، وبالغ في ذلك، فيما الغاية وراءه ولا مطمع، ولا ينصرف إلى مصرعه الذي دعاه القدر إليه، حتى تركها عدة خلقه، وأودع بها ولده وأهله، ولجأ إليها بعض من خدامه من لا يقبل مهدنة ضده، ولا يقر أمان عدوه، والتقوا على صغير من ولده كالنحل على شهده، ولجأوا إلى المسلمين، فبغض عليهم الكرة والفتح بقاء هذا الشجي، المعترض في حلقه، وأهمه تغيير أمره، وجعجع به المسلمون لأجله. وأظهروا لمن انحاز بقرمونة. الامتساك بعهده، فعظم الخرق،

وأظهر الله نجح الحيلة. وصدق بها المخيلة، وتفتر الأمر. وخمدت نار ذلك الإرجاف. واشتغل الطاغية بقرمونة، بخلال ما خوطب به صاحب الأرض الكبيرة، فطمعه في المظاهرة. وتحطب له ملك قشتالة، وعقد السلم مع صاحب برطغال والأشبونة، ونشأت الفتن بأرضهم. وخرجت عليهم الخوارج، فأوجب إزعاجه إلى تلك الجهة. وإقرار ما بالبلاد المجاورة للمسلمين من الفرسان والحماة تقاتل وتدافع عن أحوازها وجعل الخصص موجهة قرمونة وانصرف إلى سد الفتوق التي عليه بلطف الحيلة. ببواطن أرضه وأحشاء عمالته، وصار في ملكه أشغل من ذات النحيين. فساغ الريق. وأمكن العذر، وانتهز الغرة، واستؤنفت الحركة، فكانت إلى حصن منتيل والحويز، ففتحهما الله في رمضان من عام سبعين وسبعمائة، ثم إلى ثغر روطة. ففتحه الله عن جهد كبير، واتصل به حصن زمرة. فأمن الإسلام عادية العدو بتلك الناحية، وكبس أهل رندة. بإيعاز من السلطان إليها، وإلى من بالجبل جبل الفتح، حصن برج الحكيم والقشتور، فيسر الله فتحهما في رمضان أيضاً.

ثم كانت الحركة إلى الجزيرة الخضراء، باب الأندلس، وبكر الفتح الأول، فكانت الحركة إليها شهر ذي الحجة من العام المذكور. ووقع تحريض الناس بين يدي قصدها في المساجد بما نصه:

معاشر المسلمين المجاهدين. وأولي الكفاية عن ذوي الأعذار من القاعدين. أعلى الله بعلو أيديكم كلمة الدين. وجعلكم في سوى الأجر والفخر من الزاهدين، إعلموا رحمكم الله أن الإعلام بالأندلس ساكن دار، والجزيرة الخضراء بابه، ومبعد مغار، والجزيرة الخضراء ركابه، فمن جهتها اتصلت في القديم والحديث أسبابه، ونصرته على أعدايه وأعداء الله أحبابه، ولم يشك العدو الكافر الذي استباحها، وطمس بظلمة الكفر صباحها، على أثر اغتصابها، واسوداد الوجوه المؤمنة لمصابها، وتبديل محاربها، وعلوق أصله الخبيث في طيب تراثها، أن صريع الدين الحنيف بهذا الوطن الشريف. لا ينتعش ولا يقوم، بعد أن فرى الحلقوم. وأن الباقي رمق يذهب وقد سد إلى التدارك المذهب. لو لا أن الله دفع الفاقرة ووقاها. وحفظ المسكنة واستبقاها، وإن كان الجبل عصمه الله نعم البقية. وبمكانه حفت التقية، فحسبك من مصراع باب فجع بثانيه، ومضايق جوار حيل بينه وبين أمانيه. والآن يا عباد الله قد أمكنكم الانتهاز، فلا تضيعوا الفرصة، وفتر المنخنق فلا تسوغه غصة، واعمروا البواطن بحمية الأحرار، وتعاهدوا مع الله معاهد الأولياء الأبرار. وانظروا للعون من الذراري والأبكار، والنشأة الصغار، زغب الحواصل في الأكوار، والدين المنتشر بهذه الأقطار، واعملوا للعواقب، تحمدوا عملكم، واخلصوا لله الضماير، يبلغكم من فضله أملكم، فما عذر من سلم في باب وكره. وماذا

ينتظر من أذعن لكيد عدوه ومكروه. من هذه الفرضة، دخل الإسلام تروع أسوده. ومن هذه الجهة طلع الفتح الأول تخفق بنوده، ومنها تقتحم الطير الغريب، إذا رامت الجواز وفوده، فيبصر بها صفات والدليل يقوده. الباب المسدود يا عباد الله فافتحوه، وجه النصر تجلى يا عباد الله فالمحوه، الداء العضال يا عباد الله فاستأصلوه، حبل الله يا رجال الله قد انقطع فصلوه. في مثلها ترخص النفوس الغالية، في مثلها تختبر الهمم العالية، في مثلها تشهر العقايد الوثيقة، وتدس الأحباس العريقة، فنضر الله وجه من نظر إلى قلبه، وقد امتلأته حمية الدين، وأصبح لأن تكون كلمة الله هي العليا متهلل الجبين.

اللهم إنا نتوسل إليك بأسرار الكتاب الذي أنزلته، وعناية النبي العربي الذي أوفدت من خصوص الرحمات وأجزلت، وبكل نبي ركع لوجهك الكريم وسجد، وبكل ولي سده من إمدادك كما وجد. ألا ما رددت علينا ضالتنا الشاردة، وهنأتنا بفتحها من نعمك الواردة، يا مسهل المآرب العسرة، يا جابر القلوب المنكسرة، يا ولي الأمة الغريبة، يا منزل اللطايف القريبة، اجعل لنا ملايكة نصرك مدداً، وانجز لنا من تمام نورك الحق موعداً. ربنا آتنا من لدنك رحمة، وهيئ لنا من أمرنا رشداً.

فوقع الانفعال، وانتشرت الحمية، وجهزت الأساطيل. وكانت منازلتها يوم السبت الثالث والعشرين من الشهر المذكور، وعاطاها المسلمون الحرب، فدخلت البنية وهي المدينة الملاصقة لها عنوة، قتل بها من الفرسان الدارعة عدة، وصرفت الغنايم إلى المدينة الكبرى. فرأوا من أمر الله ما لا طاقة لهم به، وخذلهم الله جل جلاله، على منعة الأسوار وبعد مهاوي الأغنوار، وكثرة العهد والعدد. وطلبوا الأمان لأنفسهم. وكان خروجهم عنها يوم الاثنين الخامس والعشرين من الشهر المذكور، السعيد على المسلمين، في العيد والسرور، برد الدين. ولله الحمد على آلايه، وتوالي نعمه وإرغام أعدايه.

وفي وسط ربيع الأول من عام أحد وسبعين وسبعمائة، أعمل الحركة إلى أحواز إشبيلية دار الملك، ومحل الشوكة الحادة، وبها نايب سلطان النصارى، في الجمع الخشن من أنجاد فرسانهم، وقد عظم التضييق ببلدة قرمونة، المنفردة بالانتزاء على ملك النصارى، والانحياز إلى خدمة المسلمين، فنازل المسلمون مدينة أشونة، ودخلوا جفنها عنوة، واعتصم أهلها بالقصبة، فتعاصت، واستعجل الإقلاع منها لعدم الماء المروى والمحلات، فكان الانتقال قدماً إلى مدينة مرشانة وقد أحدقوا بها. وبها العدة والعديد من الفرسان الصناديد ففتحها الله سبحانه، إلا القصبة، واستولى المسلمون فيها، وفي جارتها. من الدواب

والآلات على ما لا يأخذه الحصر. وقتل الكثير من مقاتلتها. وعم جميعها العدم والإحراق، ورفعت ظهور دواب المسلمين التوسعة، انحطاط الأسعار، وأودب الغلاء في أرض الكفار، وقفل والحمد لله في عز وظهور. وفرح وسرور.

محمد بن أحمد العزفي

هو محمد بن يحيى بن عبد الله بن محمد بن أحمد العزفي من أهل سبتة، أبو القاسم بن أبي زكريا بن أبي طالب.

حاله

من أهل الظرف والبراعة، والطبع المعين، والذكاء، ربيس سبتة، "وابن رؤساها"، وانتقل إلى غرناطة عند خلعه، وانصرافه عن بلده. أقام بها. تحت رعيٍ حسن الروا، مالفاً للظرفاء، واشتهر بها أدبه، ونظر في الطب، ودون فيه، وبرع في بالتوشيح. ثم انتقل إلى العدوة، انتقال غبطة وأثرة، فاستعمل بها في "خطط نبيهة"، وكتب عن ملوكها وهو الآن بالحالة الموصوفة.

وجرى ذكره في "الأكليل" بما نصه: فرع تأود من الرياسة في دوحة. وتردد بين غدوة في المجد وروحة، نشأ والرياسة العزفية، تعله وتنهله. والدهر يسير أمله الأقصى ويسهله. حتى اتسقت أسباب

سعده، وانتهت إليه رياسة سلفه من بعده. فألقت إليه رحالها وحطت، ومتعته بقربها بعدما شطت. ثم كلح له الدهر بعد ما تبسم، وعاد زعزعاً نسيمه الذي كان يتنسم، وعاق هلاله عن تمه، ما كان من تغلب ابن عمه، واستقر بهذه البلاد، نائى الدار بحكم الأقدار، وإن كان نبيه المكان والمقدار، وجرت عليه جراية واسعة، ورعاية متتابعة، وله أدب كالروض باكرته الغمايم، والزهر تفتحت عنه الكمايم، رفع منه راية خافقة، وأقام له سوقاً نافقة. وعلى تدفق أنهاره، وكثرة نظمه واشتهاره، فلم أظفر منه إلا باليسير التافه بعد انصرافه.

شعره

قال:

أفديك ياريح الصبا ... عوجى على تلك الربا
واحد النامي سحرا ... ترسل غماماً صبا
على ربى غرناطة ... لكى تقضي ما ربا
ثم أبلغى يا ربح ... عن صب سلاماً طيباً

ومن منظومة أيضاً في بعض القضاة الفاسيين، وهو من البديع، وورى فيه ببابين من أبواب المدينة:

وليت بفاس أمور القضا ... فأحدثت فيه أموراً شنيعة
فتحت لنفسك باب الفتوح ... علقت للناس باب الشريعة

محمد بن أحمد بن جزي الكلبي

محمد بن أحمد بن عبد الله بن يحيى بن عبد الرحمن بن يوسف بن جزي الكلبي يكنى أبا القاسم من أهل غرناطة وذوي الأصالة والنباهة فيها، شيخنا رحمة الله عليه.

أوليته

أصل سلفه من ولمة من حصون البراجلة، نزل بها أولهم عند الفتح صحبة قريبهم أبي الخطار حسام بن ضرار الكلبي، وعند خلع دعوة المرابطين، وكانت لجدهم بجيان رياسة وانفراد بالتدبير.

حاله

كان رحمه الله، على طريقة مثلى من العكوف على العلم. والاقتصاد على الاقتيات من حر النشب، والاشتغال بالنظر، والتقييد والتدوين فقيها حافظاً، قايماً على التدريس، مشاركاً في فنون "من" العربية، والفقه، والأصول، والقراءات، والحديث، والأدب، حفظه للتفسير مستوعباً للأقوال، جماعة للكتب، ملوكى الخزانة. حسن المجلس، ممتع المحاضرة، قريب الغور، صحيح الباطن. تقدم خطيباً

بالمسجد الأعظم من بلده على حداثة سنة، فاتفق على فضله، وجرى على سننن أصالته.

مشيخته

قرأ على الإستاذ أبي جعفر بن الزبير، وأخذ عنه العربية والفقه والحديث والقرآن. وروى أبي الحسن بن مستقور. وقرأ القرآن على الأستاذ المقرى الراوية المكثر أبي عبد الله بن الكماد، ولازم الخطيب أبا عبد الله بن رشيد، وسمع على الشيخ الوزير أبى محمد عبد الله بن أحمد أبن المؤذن، وعلى الراوية المسن أبى الوليد الحضرمي. يروي عن سهل بن مالك وطبقته. وروى عن الشيخ الراوية أبى زكريا البرشاني، وعن الراوية الخطيب أبى عبد الله محمد بن محمد بن علي الأنصاري، والقاضي أبى المجد بن أبى على بن أبى الأحوض، والقاضي أبى عبد الله بن برطال، والشيخ الوزير ابن أبى عامر بن ربيع، والخطيب الولى أبى عبد الله الطنجالي، والأستاذ النظار المتفنن أبى القاسم قاسم بن عبد الله بن الشاط. وألف الكثير في فنون شتى.

تواليفه

منها كتاب "وسيلة المسلم في تهذيب صحيح مسلم" وكتاب "الأنوار السنية في الكلمات السنية" وكتاب "الدعوات والأذكار المخرجة من صحيح الأخبار" وكتاب "القوانين الفقهية في تلخيص

مذهب المالكية" "والتنبيه على مذهب الشافعية والحنفية والحنبلية" وكتاب "تقريب الوصول إلى لعم الأصول" وكتاب "النور المبين في قواعد عقايد الدين" وكتاب "المختصر البارع في قراءة نافع" وكتاب "أصول القراء الستة غير نافع" وكتاب "الفوايد العامة في لحن العامة"، إلى غير ذلك مما قيده في التفسير والقراءات وغير ذلك. وله فهرسة كبيرة. اشتملت على جملة من أهل المشرق والمغرب.

شعره

قال في الأبيات الغينية ذاهباً مذهب الجماعة كأبي العلاء المعري. والرييس أبي المظفر، وأبي الطاهر السلفى، وأبي بالحجاج بن الشيخ، وأبي الربيع بن سالم، وأبي علي بن أبي الأحوص، وغيرهم، كلهم نظم في ذلك:

لكل بني الدنيا مراد ومقصد ... وإن مرادي صحة وفراغ
لأبلغ في علم الشريعة مبلغاً ... يكون به لي للجنان بلاغ

وقال في الجناب النبوى:

أروم امتداح المصطفى ويردني ... فصورى عن إدراك تلك المناقب
ومن لي بحصر البحر والبحر زاخر ... ومن لي بإحصا الحصا والكواكب
ولم أن إعضائى غدت ألسنا إذا ... لم بلغت في المدح بعض مآرب
ولو أن كل العالمين تألفوا على ... مدحه لم يبلغوا بعض واجب
فأمسكت عنه هيبة وتأدباً ... وخوفاً وإعظاماً لأرفع جانب

ورب سكوت كان فيه بلاغه ورب كلام فيه عتب لعاتب

وقال رحمه الله مثفقاً من ذنبه:

يا رب إن ذنوبي اليوم قد كثرت فما أطيق لها حصراً ولا عدداً
وليس لي بعذاب النار من قبل ولا أطيق لها صبراً ولا جلداً
فانظر إلهي إلى ضعفي ومسكنتي لا تذيقني حر الجحيم غدا

وقال في مذهب الفخر:

وكم من صفحة كالشمس تبدو فيسلى حسن قلب الحزين
غضضت الطرف عن نظرى إليها محافظة على عرضى وديني

وفاته

فقد وهو يشخد الناس ويحرضهم، ويثبت بصايرهم، يوم الكاينة بطريف، ضحويوم الإثنين السابع لجمادى االإلى عام أحد وأربعين وسبعماية، تقبل الله شهادته. عقبه ظاهر بين القضاء والكتابة.

ابن حيان النفزي

محمد بن يوسف بن علي بن يوسف بن حيان النفزي من أهل غرناطة، يكنى أبا حيان، ويلقب من الألقاب المشرقية بأثير الدين.

حاله

كان نسيج وحده في ثقوب الذهن، وصحة الإدراك "والحفظ" والاضطلاع بعلم العربية، والفسير وطريق الرواية، إمام النحاة في زمانه

غير مدافع، نشأ ببلده غرناطة، مشاراً إليه في التبريز بميدان الإدراك، وتغيير يالسوابق في مضمار التحصيل. ونالته نبوة لحق بسببها بالمشرق، واستقر السوابق في مضمار التحصيل. ونالته نبوة لحق بسببها بالمشرق، واستقر بمصر، فنال ما شاء من عز وشهرة، وتأثلٍ وبروحظوة، وأضحى لمن حل بساحته من المغاربة، ملجأً وعدة. وكان شديد البسط، مهيباً، جهورياً، مع الدعابة والغزل، وطرح السمت، شاعراً مكثراً، مليح الحديث، لايمل وإن أطال، وأسن جداً، وانتفع به. قال بعض أصحابنا، دخلت عليه، وهو يتوضأً، وقد استقر على إحدى رجليه لغسل الأخرى، كما تفعل البرك والأوز، فقال لو كنت اليوم جار شلير ما تركني لهذا العمل في هذا السن.

مشيخته

قرأ ببلده على الأستاذ حايز الرياسة أبي جعفر بن الزبير ولازمه، وانتسب إليه، وانتفع به، وشاد له بالمشرق ذكراً كبيراً. ويقال إنه نادى في الناس عندما بلغه نعية، وصلى عليه بالقاهرة، وله إليه. مخاطبات أدبية اختصرتها، وعلى الأستاذ الخطيب أبي جعفر علي بن محمد الرعيني الطباع، والخطيب الصالح ولي الله أبي الحسن فضل بن محمد بن علي ابن ابراهيم بن فضيلة المافري. وروى عن القاضي المحدث أبي على الحسين ابن عبد العزيز بن أبي ألأحواض الفهرى، والمكتب أبي

بسهل اليسر بن عبد الله ابن محمد بن خلف بن اليسر القشيري، والأستاذ أبي الحسن بن الصابيغ، والأديب الكاتب أبي محمد عبد الله بن هرون الطائي بتونس، وعلى المسند صفى الدين أبي محمد عبد الوهاب بن حسن بن إسماعيل بن مظفر بن الفرات الحسنى بالأسكندرية، والمسند الأصولي وجيه الدين أبي عبد الله محمد ابن عبد الرحمن بن أحمد بن عمران الأنصاري بالثغر، والمحدث نجيب الدين أبي عبد الله محمد بن أحمد بن محمد بن المؤيد الهمداني بالقاهرة، وغيرهم ممن يشق إحصارهم. كالإمام بهاء الدين محمد بن ابراهيم ابن محمد بن أبي نصر بن النحاس الشافعي. قرأ عليه جميع كتاب سيبويه في سنة ثمان وثمانين وستماية، وقال له عند ختمه، لم يقرأه على أحد غيره.

تواليفه

وتواليفه كثيرة، منها شرحه كتاب "تسهيل الفوايد لابن مالك: وهو بديع، وقد وقفت على بعبضه بغرناطة في عام سبعة وخمسين وسبعماية. وكتابه في تفسير الكتاب العزيز، وهو المسمى "بالبحر المحيد" تسمية زعموا موافقة للغرض. وألف كتاباً في نحو اللسان التركى، حدثنا عنه الجملة الكثيرة من أصحابنا، كالحاج أبي يزيد خالد بن عيسى، والمقرى الخطيب أبي جعفر الشقورى، والشريف أبي عبد الله بن راجح، وشيخنا الخطيب أبي عبد بن مرزوق. وقال حدثنا

الأستاذ العلامة المتفنن أبو جعفر أحمد بن ابراهيم بن الزبير، سماعاً من لفظه، وكتباً من خطه بغرناطة، عن الكاتب أبي بإسحق بن عامر الهمداني الطوسى بفتح الطاء، حدثنا أبو عبد الله بن محمد العنسى القرطبي، وهو آخر من حدث عنه، أخبرنا أبو علي الحسن بن محمد الحافظ الجياني، ناحكم بن محمد، نا أبو بكر بن المهندس، نا عبد الله ابن محمد، نا طالوت بن عياد بن بصال بن جعفرن سمعت أبا إمامة الباهلي بقول، سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: أكفلوا لي بيت أهل لكن في الجنة، إذا حدث أحدكم بلا كذب، وإذا ايتمن فلا يخن، وإذا وعد فلا يخلف. غضوا أيساركم، وكفوا أيديكم، واحفظوا فروجكم. وقال، أنشدنا الخطيب أبو جعفر الطباع. قال أنشدنا ابن خلفون. قال أنشدنا أبو عبد الله محمد بن سعيد. قال أنشدنا أبو عمران موسى ابن أبي تليد لنفسه:

حـالي مـع الـدهر في تقلبـه   كطـاير ضـم رجلـه التسـرك
فهمـه في خـلاص مهجتـه   يـروم تخليصـها فيشـتبك

ومن ملحه: قال قدم علينا الشيخ المحدث أبو العلاء محمد بن أبي بكر البخاري الفرضى بالقاهرة في طلب الحديث. وكان رجلاً حسناً طيب الأخلاق، لطيف المزاج، فكنا نسايره في طلب الحديث، فإذا رأى صورة حسنة، قال هذا حديث على شرط البخاري، فنظمت هذه الأبيات:

بـدا كهـلال العيـد وقـت طلوعـه ومـاس كغصـن الخيـزران المـنعم
غـزال رخـيم الـدل وافي مواصـلا موافقـة منـه علـى رغـم لـوم
مليح غريب الحسن أصبح معلماً بخمـرة خـد بالمحاسـن معلـم
وقالوا على شرط البخاري قد أتى فقلنا على شرط البخاري ومسلم
فقال مولاي أنا البخاري فمن مسلم فقلت له أنت البخاري وأنا مسلم

محنته

حملته حدة الشبيبة على "التعريض للأستاذ" أبي جعفر الطباع، وقد وقعت بينه وبين أستاذه ابن الزبير الوحشة فنال منه، وتصدى للتأليف في الرد عليه، وتكذيب روايته، فرفع أمره إلى السلطان، فامتعض له، ونفذ الأمر بتنكيله، فاختفى، ثم أجاز البحر مختفياً، ولحق بالمشرق يلتفت خلفه.

شعره

وشعره كثير بحيث يتصف بالإجادة وضدها. فمن مطولاته رحمه الله قوله:

لا تعذلاه فما ذو الحب معذول العقـل مختبـل والقلـب متبـول
هـزت لـه أسمراً مـن خـوط قامتهـا فما انثنى للصب إلا وهو مقتول
جميلـة فصـل الحسـن البيـع لهـا فكـم لهـا جمـل منـه وتفصـيل
فـالنحر ذو غـنجٍ والعرف ذو أرج والخصر مختطف والعنق مجدول
هيفاء ينبس في الخصر الوشاح لها ردماً تخرس في الساق الخلاخيل

مــن اللــواتي غــذاهن النعــيم فمــا يشــقين آباؤهــا الصــيد البهاليــل
نــزر الكــلام غميــات الجــواب إذا سلن بعد الصحا حصر مكاسيل
مـن حليهـا ومناهـا مـونس وهـدى فلــيس يلحقهــا ذعــر وتضــليل
حلـــت بمنعقـــد الـــزوراء زارة شوسا غياري فعقد الصبر محلول
فمـد عـن ذكـر ليلـى إن ذكرهـا علــى التنــالي لتعــذيب وتعليــل
أتاك منـــك نـــذير فأنـــذرن بـــه وبادر التــوب إن التــوب مقبــول
وأمـــل العفـــر واســـلك مهمهـــا قدفا إلى رضى الله إن العفو مأمول
إن الجهــاد وحــج البيــت مختتمــا بــزورة المصــطفى للعفــو تأميــل
فشــق حيــزوم هــذا الليــل ممتطيــاً أخـا خـرام بـه قـد يبلـغ السـؤل

محمد بن مرزوق العجيسي

محمد بن أحمد بن محمد بن محمد بن أبي بكر بن مرزوق العجيسي من أهل تلمسان، يكنى أبا عبد الله، ويلقب من الألقاب المشرقية بشمس الدين.

حاله

هذا الرجل من طرف دهره ظرفاً وخصوصية ولطافة، مليح التوسل حسن اللقاء، مبذول البشر، كثير التودد، نظيف البزة، لطيف التأتي، خير البيت، طلق الوجه، خلوب اللسان، طيب الحديث، مقدر الألفاظ، عارف بالأبواب، درب على صحبة الملوك والأشراف، متقاض لإيثار السلاطين والأمراء، يسحرهم بخلابة لفظه، ويفتلهم في

الذروة والغارب بتنزله، ويهتدي إلى أغراضهم الكمينة بحذقه، ويصنع غاشيتهم بتلطفه، ممزوج الدعابة بالوقار، والفكاهة بالنسك، والحشمة بالبسط، عظيم المشاركة لأهل وده، والتعصب لإخوانه، إلف مألوف، كثير الأتباع والعلق، مسخر الرقاع في سبيل الوساطة، مجدي الجاه، غاص المنزل بالطلبة، منقاد الدعوة، بارع الخط، أنيقه، عذب التلاوة، متسع الرواية، مشارك في فنون، من أصول وفروع وتفسير، يكتب ويشعر ويقيد ويؤلف، فلا يعدو السداد في ذلك، فارس منبر غير جزوع ولا هيابة. رحل إلى المشرق في كنف حشمة نم جناب والده رحمه الله، فحج وجاور، ولقي الجلة، ثم فارقة، وقد عرف بالمشرق حقه، وصرف وجهه إلى المغرب، فاشتمل عليه السلطان أبو الحسن أميره، اشتمالاً خلطه بنفسه، وجعله مفضي سره، وإمام جمعته وخطيب منبره، وأمين رسالته، فقدم في غرضها على الأندلس في أواخر عام ثمانية وأربعين وسبعماية، واجذبه سلطانها رحمه الله، وأجراه على تلك الوتيرة، فقلده الخطبة بمسجده في السادس لصفر عام ثلاثة وخمسين وسبعماية، وأقعده للإقراء بالمدرسة من حضرته. وفي أخريات عام أربعة وخمسين بعده أطرف عنه حفن بره، في أسلوب طماح ودالة، وسبيل هوى وقحة، فاغتنم العبرة، وانتهز الفرصة، وأنفذ في الرحيل العزمة، وانصرف عزيز الرحلة، مغبوط المنقلب، في أوايل شعبان عام أربعة وخمسين وسبعماية، فاستقر بباب ملك المغرب، أمير المؤمنين أبي

عنان فارس في محل تجلة، وبساط قرب، مشترك الجاه، مجدي التوسط، ناجع الشفاعة، والله يتولاه ويزيده من فضله.

مشيخته

من كتابه المسمى عجالة المتسوفز المستجاز في ذكر من سمع من المشايخ دون من أجاز، من أئمة المغرب والشام والحجاز. فممن لقيه بالمدينة المشرفة على ساكنها الصلاة والسلام، الإمام العلامة عز الدين محمد أبو الحسن ابن علي بن إسمعيل الواسطي صاحب خطتي الإمامة والخطابة بالمسجد النبوي الكريم، وأفرد جزءاً في مناقبه. ومنهم الشيخ الإمام جمال الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد بن خلف بن عيسى الخزرجي السعدي العبادي، تحمل عن عفيف الدين أبي محمد عبد السلام بن مزروع وأبي اليمن وغيره. والشيخ الإمام خادم الوقت بالمسجد الكريم ونائب الإمامة والخطابة به، ومنشد الأمداح النبوية هنالك. وبمكة شرفها الله، الشيخ المعمر الثقة شرف الدين أبو عبد الله عيسى بن عبد الله الحجي المكي. ولا شيخ الصالح شرف الدين خضر بن عبد الرحمن العجمي. والشيخ مقري الحرم برهان الدين إبراهيم بن مسعود بن إبراهيم الآبلي المصري. والشيخ الإمام الصالح أبو محمد عبد الله بن أسعد الشافعي الحجة، انتهت إليه الرياسة العلمية والخطط الشرعية بالحرم. والشيخ قاضي القضاة وخطيب الخطباء عز الدين أبو

عمر عبد العزيز بن محمد بن جماعة الكناني قاضي القضاة بمصر. وبمصر الشيخ علاء الدين القونوي. والتقي السعدي، وقاضي القضاة القزويني، والشرف أقضى القضاة الإخميمي، وكثيرون غيرهم. وسمع من عدد عديد آخر من أعلام القضاة والحفاظ والعلماء بتونس، وبجاية، والزاب، وتلمسان.

محنته

اقتضى الخوض الواقع بين يدي تاميل الأمير أبي الحسن رحمه الله، وتوقع عودة الأمر إليه، وقد ألقاه اليم بالساحل بمدينة الجزاير، أن قبض عليه بتلمسان، أمراؤها المتوثبون عليها في هذه الفترة، من بني زيان، إرضاء لقبيلهم، المتهم بمداخلته، وقد رحل عنهم دسيساً من أميرهم عثمن بن يحيى بن عبد الرحمن بن يغمراسن، فصرف مأخوذاً عليه طريقه، منتهباً رحله، منتهكة حرمته، وأسكن قرارة مطبق عميق القعر، مقفل المسلك، حريز القفل، ثاني اثنين. ولأيام قتل ثانيه ذبحاً بمقربة من شفى تلك الركية، وانقطع لشدة لاثقاف أثره، أيقن الناس بفوات الأمر فيه. ولزمان من محنته ظهرت عليه بركة سلفه، في خبر ينظر بطرقه إلى الكرامة، فنجا ولا تسل كيف، وخلصه الله خلاصاً جميلاً، وقدم على الأندلس، والله ينفعه بمحنته.

شعره وما وقع من المكاتبة بيني وبينه

ركب مع السلطان خارج الحمراء، أيام ضربت اللوز قبابها البيض، وزينت الفحص العريض، والروض الأريض، فارتجل في ذلك:

أنظـــر إلى النـــوار في أغصـــانه	يحكى النجوم إذا تبدت في الحلك
حيـاً أمـير المسـلمين وقـال قـد	عميـت بصـيرة مـن بغـيرك مثلـك
يا يوسـفاً حـزت الجمـال بأسـره	فمحاسـن الأيام تـومي هيـت لـك
أنـت الـذي صـعدت بـه أوصـافه	فيقـال فيـه ذا مليـك أو ملـك

ولما قدمت على مدينة فاس في غرض الرسالة، خاطبني بمنزل الشاطبي على مرحلة منها بما نصه:

يا قادمـــاً وافي بكـــل نجـــاج	أبشـــر بمـــا تلقـــاه مـــن أفـــراح
هـذي ذرى ملـك الملوك فلـذ بها	تنـــل المـــنى وتفـــز بكـــل سمـــاح
مغـــني الإمـــام أبي عنـــان يممـــن	تظفـــر ببحـــر في العلـــى طفـــاح
من قاس جود أبي عنان ذي الندى	بسـواه قـاس البحـر بالضحضـاح
ملـك يفـيض علـى العفـاة نوالـه	قبـل السـوال وقبـل بسـطة راح
فلجود كعب وابن سعدي في الندى	ذكـــر محـــاه مـــن نـــداه مـــاح
مـــا أن رأيـــت ولا سمعـــت بمثلـــه	مـــن أريحـــي للنـــدى مـــرتاح
بسط الأمان على الأنام فأصبحوا	قـــد ألحفـــوا منـــه بظـــل جنـــاح
وهمـي علـى العـافين سـيب نوالـه	حـتى حكـى سـح الغمـام السـاح
فنوالـــه وجلالـــه وفعالـــه فاقـــت	وأعيـــــت ألســـــن المـــــداح
وبه الدنا أضحت تروق وأصبحت	كـــل المـــنى تنقـــاد بعـــد جمـــاح

مـن كـان ذا تـرح فرؤيـة وجهـه متلافـة الأحـزان والأتـراح
فـانهض أبا عبـد الإلـه تفـز بمـا تبغيـه مـن أمـل ونيـل نجـاح
لا زلـت ترتشـف الأمـاني راحـة مـن راحـة المـولى بكـل صـباح

والحمد لله يا سيدي وأخي على نعمه التي لا تحصى حمداً يؤم به جميعنا المقصد الأسنى، فيبلغ الأمد الأقصى، فطالما كان معظم سيدي للأسى في خبال، وللأسف بين اشتغال بال، واشتغال بلبال، ولقدومكم على هذا المقام العلي في ارتقاب، ولمواعدكم بذلك في تحقق وقوعه من غير شك ولا ارتياب، فها أنت تجتلي، من هذا المقام العلي، لتشيعك وجوه المسرات صباحاً، وتتلقى أحاديث مكارمه ومواهبه مسندة صحاحاً بحول الله. ولسيدي الفضل في قبول مركوبه الواصل إليه بسرجه ولجامه، فهو من بعض ما لدي المحب من إحسان مولاي وإنعامه. ولعمري لقد كان وافداً على سيدي في مستقره مع غيره. فالحمد لله الذي يسر في إيصاله على أفضل أحواله.

فراجعته بقولي:

راحـت تـذكرني كـؤوس الـراح والقـرب يخفـض للجنـوح جنـاح
وسـرت تـدل علـى القبـول كأنمـا دل النسـيم علـى انـبلاج صـباح
حسـناء قـد غنيـت بحسـن صـفاتها عـن دملـج وقـلادة ووشـاح
أمست تحض على اللياذ بمن جرت بسـعوده الأقـلام في الأفـراح
بخليفـة الله المؤيـد فـارس شمـس المعـالي الأزهـر الوضـاح

ما شيت من همم ومن سيم غدت ... كـــالزهر أو كـــالزهر في الأدواح
فضـل الملـوك فلـيس يـدرك شـأوه ... أني يقـــاس الغمـــر بالضحضـــاح
أســـنى بـــني عباســـهم بلوانـــه ... المنصـــور أو بحســـامه الســـفاح
وغـدت مغـاني الملـك لمـا حلهـا ... تزهـي ببـدر هـدى وبحـر سمـاح
وحيـاة مـن أهـداك تحفـة قـادم ... في العـرف منهـا راحـة الأرواح
مـا زلـت أجعـل ذكـره وثنـاءه ... روحـــي وريحـــاني الأريـــج وراح
ولقـــد تمـــازج حبـــه بجـــوارحي ... كتمـــازج الأجســـام بالأرواح
ولـو أنـني أبصـرت يومـاً في يـدي ... أمـري لطـرت إليـه دون جنـاح
فـالأن سـاعدني الزمـان وأيقنـت ... مـن قربـه نفسـي بفـوز قـداح
إيـــه أبا عبـــد الإلآه وإنـــه ... لنـــداء ود في عـــلاك صـــراح
أمـا إذا اسـتنجدتني مـن بعـد مـا ... ركـدت لمـا خبـت الخطـوب رياح
فأليكهـــا مهزولـــة وأنا امـــرؤ ... قـررت عجـزي وأطرحـت سـلاح

سيدي: أبقاك الله لعهد تحفظه، وولي بعين الولاء تلحظه. وصلتني رقعتك التي ابتدعت، وبالحق من مدح المولى الخليفة صدعت، وألفتني وقد سطت بي الأوحال، حتى كادت تتلف الرحال، والحاجة إلى الغذاء، قد شمرت كشح البطين، وثانية العجماوين قد توقع فوات وقتها، وإن كانت صلاتها صلاة الطين، والفكر قد غاض معينه، وضعف وعلى الله جزاء المولى الذي يعينه، فعزتني بكتيبة بيان أسدها هصور، وعلمها منصور، وألفاظها ليس فيها قصور، ومعانيها عليها الحسن مقصور، واعتراف مثلي بالعجز في المضايق حول ومنة، وقول

لا أدري للعالم فكيف لغيره جنة. لا كنها بشرتني بما يقل لمهديه بذل النفوس وإن جلت، وأطلعتني من اسراء على وجه تحسده الشمس إذا تجلت، بما أعلمت به من جميل اعتقاد مولانا أمير المؤمنين أيده الله، في عبده، وصدق المخيلة في كرم مجده. وهذا هو الجود المحض، والفضل الذي شكره هو الفرض. وتلك الخلافة المولوية تتصف بصفة من يبدأ بالنوال، من قبل الضراعة والسؤال، من غير اعتبار للأسباب، ولا مجازاة للأعمال. نسأل الله أن يبقى منها على الإسلام أوفى الظلال، ويبلغها من فضله أقصى الآمال. ووصل ما بعثه سيدي صحبتها من الهدية، والتحفة الودية، وقبلتها امتثالاً، واستجليت منها عتقاً وجمالاً. وسيدي في الوقت أنسب إلى اتخاذ ذلك الجنس، وأقدر على الاستكثار من إناث اليهم والإنس. وأنا ضعيف القدرة، غير مستطيع لذلك إلا في الندرة، فلو رأى سيدي، ورأيه سداد، وقصده فضل ووداد، أن ينقل القضية إلى باب العارية من باب الهبة مع وجوب الحقوق المترتبة، لبسط خاطري وجمعه، وعمل في رفع المؤنة على شاكلة ونجره، وسيدي في الإسعاف على الله أجره، وهذا أمر عرض، وفرض فرض، وعلى نظره المعول، واعتماد إغضائه هو المعقول الأول. والسلام على سيدي من معظم قدره، وملتزم بره، ابن الخطيب، في ليلة الأحد السابع والعشرين لذي قعدة سنة خمسة وخمسين

وسبعماية، والسماء قد جادت بمطر سهرت منه الأجفان، وظن أنه طوفان، واللحاق في غد بالباب المولوي، مؤمل بحول الله.

ووردت على باب السلطان الكبير العالم أبي عنان، فبلوت من مشاركته. وحميد سعيه، ما يليق بمثله. ولما نكبه لم أقصر عن ممكن حيلة في أمره ولما هلك السلطان أبو عنان رحمه الله، وصار الأمر لأخيه المتلاحق من الأندلس أبي سالم بعد الولد المسمى بالسعيد كان ممن دمث له الطاعة، وأناخ راحلة الملك، وحلب ضرع الدعوة، وخطب عروس الموهبة، فأنشب ظفره في متات معقود من لدن الأب، مشدود من لدن القربة، فاستحكم عن قرب، واستغلظ عن كثب، فاستولى على أمره، وخلطه بنفسه، ولم يستأثر عنه ببثة، ولا انفرد بما سوى بضع أهله. بحيث لا يقطع في شيئا عن رأيه، ولا يمحو ويثبت إلا واقفاً عند حده، فغشيت بابه الوفود، وصرفت إليه الوجوه، ووقفت عليه الآمال، وخدمته الأشراف، وجلبت إلى سدته بضايع العقول والأموال، وهادته وخدمته الأشراف، وجلبت إلى سدته بضايع العقول والأموال، وهادته الملوك، فلا تحدو الحداة إلا إليه، ولا تحط الرحال إلا لديه. إن حضر أجرى الرسم، وأنفذ الأمر والنهي لحظاً أو سراراً أو مكاتبة، وإن غاب، ترددت الرقاع، واختلفت الرسل. ثم انفرد أخيراً ببيت الخلوة، ومنتبذ المناجاة، من دونه مصطف الوزراء، وغايات

الحجاب، فإذا انصرف تبعته الدنيا، وسارت بين يديه الوزراء، ووقفت ببابه الأمراء، قد وسع الكل لحظه، وشملهم بحسب الرتب والأموال رعيه، ووسم أفذادهم تسويده، وعقدت ببنان عليتهم بنانه. لاكن رضي الناس غاية لا تدرك، والحقد بين بني آدم قديم، وقبيل الملك مباين لمثله، فطويت الجوانح منه على سل، وحنيت الضلوع على بث، وأغمضت الجفون على قذى إلى أن كان من نكبته ما هو معروف جعلها الله له طهوراً.

ولما جرت الحادثة على السلطان بالأندلس، وكان لحاق جميعنا بالمغرب، جنيت ثمرة ما أسلفته في وده، فوفي كيل الوفا، وأشرك في الجاه، وأدر الرزق، ورفع المجلس بعد التسبيب في الخلاص، والسعي في الجبر، جبره الله تعإلى وكان له أحوج ما يكون إلى ذلك، يوم لا ينفع مال ولا بنون، إلا من أتى الله بقلب سليم.

ولما انقضى أمر سلطانه رحمه الله، وقذف به بحر التمحيص إلى شطه، وأضحى جو النكبة بعد انطباقه، آثر التشريق بأهله وجملته، واستقر بتونس، خطيب الخلافة، مقيماً على رسمه من التجلة، ذايع الفضل هنالك والمشاركة، وهو بحاله الموصوفة إلى الآن كان الله له.

وكنت أحسست منه في بعض الكتب الواردة، صاغية إلى الدنيا، وحنيناً لما فارق من غرورها، فحملني الطور الذي ارتكبته في هذه

الأيام بتوفيق الله، على أن خاطبته بهذه الرسالة، وحقها أن يجعلها خدمة الملوك ممن ينسب إلى نبل، أو يلم بمعرفة، مصحفاً يدرسه، وشعاراً يلتزمه، وهي: سيدي، الذي يده البيضاء لم تذهب بشهرتها المكافاة، ولم تختلف في مدحها الأفعال، ولا تغايرت في حمدها الصفات، ولا تزال تعترف بها العظام الرفات، أطلقك الله من أسر الكون، كما أطلقك من أسر بعضه، ورشدك في سمايه العالية وأرضه، وحقر الحظ في عين بصيرتك بما يحملك على رفضه. اتصل بي الخبر السار من تركك لشأنك، وإجناء الله إياك ثمرة إحسانك، وإنجياب ظلام الشدة الحالك، عن أفق حالك. فكبرت لانتشاق عفو الله العاطر، واستعبرت لتضاؤل الشدة بين يدي الفرج، لا بسوى ذلك من رضى مخلوق يومر فيأتمر، ويدعوه القضاء فيبتدر، إنما هو فيئ وظل ليس له من الأمر شيء، ونسأله جل وتعإلى أن يجعلها آخر عهدك بالدنيا وبنيها، وأول معارج نفسك، التي تقربها من الحق وتدنيها، وكأنني والله أحس بثقل هذه الدعوة على سمعك، ومضادتها ولا حول ولا قوة إلا بالله لطبعك، وأنا أنافرك إلى العقل الذي هو قسطاس الله في عالم الإنسان، والآلة لبث العدلي والإحسان، والملك الذي يبين عنه ترجمان اللسان، فأقول ليمت شعرى ما الذي غبط سيدى بالدنيا. وإن بلغ من زبرجها الرتبة العليا، وأفرض المثال لحالة إقبالها، ووصل حبالها، وضراعة سبالها، وخشوع جبالها. ألتوقع المكروه صباح مسا،

وارتقاب الحوالة التي تديل من النعيم الباسا، ولزوم المنافسة التي تعادى الأشراف والرؤسا. ألترثبق العتب، حتى على التقصير في الكتب، وظعينة جار الجنب، وولوع الصديق بإحصاء الذنب. ألنسبة وقايع الدولة إليك وأنت بري، وتطويقك الموبقات وأنت منها عرى. ألا ستهدافك للمضار التي تنتجها غيرة الفروج، والأحقاد التي تضطبنها ركبة السروج وسرحة المروج، ونجوم السما ذات البروج. ألتقليدك التقصير فيما ضاقت عنه طاقتك، وصحت إليه فاقتك، من حاجة لا يقتضي قضاها الوجود، ولا يكيفها الركوع للملك والسجود. ألقطع الزمان بين سلطان يعبد، وسهام للغيوب تكبد، وعجاجة شر تلبد، وأقبوحة تخلد وتوبد ألوزير يصانع ويداري، وذي حجة صحيحة يجادل في مرضاة السلطان ويمارى، وعورة لاتوارى. ألمباكرة كل عايب حاسد، وعدو ومستأسد، وسوق للإنصاف والشفقة كاسد، وحال فاسد، أللوفود تتزاحم بسدتك، مكلفة لك غير ما في طوقك، فإن لم تنل أغراضها، قلبت عليك السما من فوقك. ألجلساء ببابك، لا يقطعون زمن رجوعك وإيابك، إلا بقبيح اغتيابك، فالتصرفات تمقت، والقواطع النجوميات توقت، والألاقى تبث، والسعايات تحث، والسماجد يشتكى قيها البث، يعتقدون أن السلطان في يدك، بمنزلة الحمار المدبور، واليتيم المحجور، والأسير المامور، ليس له شهرة ولا غضب. ولا أمل في الملك ولا أرب، ولا موجدى لأحد كامنة، وللشر

ضامنة، وليس في نفسه عن رأي نفرى، ولا بإزاء مالا يقبله نزوة وطفرة، إنما هو جارحة لصيدك، وعان في قيدك، وآلة لتصرف كيدك، وأنك علة حيفه، ومسلط سيفه. الشرار يسملون عيون الناس باسمك، ثم يمزقون بالغيبة مزق جسمك، قد تنخلهم الوجود أخبث مافيه، واختارهم السفيه فالسفيه، إذا الخير يسره الله عن الدول ويخفيه، ويقنعه بالقليل فيكفيه. فهم يمتاحون بك، ويولونك الملامة، ويقتحمون عليك أبواب القول، ويسدون طرق السلامة، وليس لك في أثناء هذه إلا مايعوزك مع ارتفاعه، ولايفوتك مع انقشاعه، وذهاب صداعه، من غذاء يشبع، وثوب يقنع، وفراش ينيهم، وخديم يقعد ويقيم. ومالفاية في فرش تحتها جمر الغضا، ومال من ورايه سوء القضا، وجاه يحلق عليه سيف منتضا، وإذا بلغت النفس إلى الالتذاذ بما لاتملك، واللجاج حول المسقط الذي تعلم أنها فيه تملك، فكيف ينسب إلى نبل أو يسر مع السعادة في سبل، وإن وجدت في القعود بمجلس التحية بعض الأريحية، فليت شعرى أي شيء زادها، أو معنى أفادها، إلا مباكرة وجه الحاسد، وذي القلب الفاسد، ومواجهة العدو المستاسد. أو شعرت ببعض الإيناس في الركوب بين الناس، هل التذت إلا بحلم كاذب، أو جذبها غير الغرور مجاذب. إنما الحلية وافتك من يحدق إلى البزة، ويستطيل مدة العزة، ويرتاب إذا حدث بخبرك، ويتبع بالنقد والتجسس مواقع نظرك ويمنعك من شارة أنسك، ويحتال على فراغ

كيسك، ويضمر الشر لك ولرسيك، وأي راحة لمن لايباشر قصده، ويسير متى شا وحده، ولو صح في هذه الحال لله حظ، وهبه زهيداً، أوعين للرشد عملاً حميداً، لساغ الصاب، وخفت الأوصاب، وسهل المصاب. لاكن الوقت أشغل والفكر أوغل، والزمن قد غمرته الحصص الوهمية، واستنفدت منه الكمية. أما ليله ففكر أو نوم، وعتب يجر الضراس ولوم، وأما يومه فتدبير، وقبيل ودبير، وأمور يعيا بها ثبير، وبلاء مبير، ولغط لايدخل فيه حكيم كبير، وأنا بمثل ذلك خبير. ووالله ياسيدي، ومن فلق الحب وأخرج الأب، وذرا من مشى ومادب، وسمى نفسه الرب، لو تعلق المال الذي يجده هذا الكدح، ويورى سقيطه هذا القدح، بإذيال الكواكب، وزاحمت البدر بدره بالمناكب، لاورثه عقب، ولاخلص به محتقب، ولا فاز به سافر ولا منتقب. والشاهد الدول والمشايم الأول. فأين الرباع المقتناة، وأين الديار المبتداة، وأين الحدايق المغترسات، وأين الذخاير المختلسات، وأين الودايع المؤملة، وأين الأمانات المحملة، تأذن الله بتتبيرها، وإدناء وتار التيار من دنانيرها، فقفلما تلقى أعقابهم إلا أعرباً للطمور، مترمقين بجرايات الشهور، متعللين بالهباء المنثور، يطردون من الأبواب التي حجب عندها آباؤهم، وعرف منها إباؤهم، وشم من مقاصيرها عنبرهم وكباؤهم، لم تسامحهم الأيام إلا في إرث محررٍ، أو حلال مقرر، وربما محقة الحرام، وتعذر منه المرام. هذه أعزك الله حال قبولها مالها مع

الترفيه، وعلى فرض أن يستوفي العمر في العز مستوفيه. وأما ضده من عدو يتحكم وينتقم، وحوت بغى يبتلع ويلتقم، وطبق يحجب الهواء ويطيل في التراب الثوا، وثعبان قميد يعض الساق، وشوبوب عذاب يمزق الإبشار الرقاق، وغيلة يهديها الواقب الغاسق، ويوجرعها العدو الفاسق، مع الأفوال ولا شروق، فهل في شئ من هذا مغتبط لنفس حرة، أو مايساوى جرعة حالٍ مرة.. واحسرتاه للأحلام ضلت، وللأقدام زلت، ويالها مصيبة جلت، ولسيدي أن يقول حكمت على باستثقال الموعظة واستجفافها، ومراودة الدنيا بين خلالها وأكفايها، وتناسى عدم وفايها، فأقول الطبيب بالعلل أدرى، والشفيق بسوء الظن مغرى. وكيف لا وأنا أقف على السحاآت، بخط سيدي، من مطارح الاعتقال، ومثاقف النوب الثقال، وحلوات الاستعداد للقاء الخطوب الشداد، ونوش الأسنة الحداد، وحيث يجمل تمثله ألا تصرف في غير الخضوع لله بناناً، ولايثنى لمخلوق عناناً. وأتعرف أنها قد ملأت الجو الدو، وقصدت الجماد والبو، تقتحم أكف أولى الشمات، وحفظة المذمات، وأعوان النوب الملمات، زيادة في الشقا، وقصد أبرياء من الاختيار والانتق، مشتملة من التجاوز على إغرب من العنقا، ومن النقاق على أشهر من البلقا. فهذا يوصف بالإمامة، وهذا ينسب في الجود إلى كعب بن مامة، وهذا يجعل من أهل الكرامة، وهذا يجعل من أهل الكرامة، وهذا يكلف الدعاء وليس من أهل، وهذا

يطلب منه لقا الصالحين وليسوا من شكله، إلى ما أحفظني والله من البحث عن السموم، وكتب النجوم، والمذموم من المعلوم، هلا كان من ينظر في ذلك قد قوطع بتاتاً، وأعتقد أن الله جعل لزمن الخير والشر ميقاتاً، وأنا لانملك موتاً ولا نشوراً ولا حياتاً، وأن اللوح قد حصر الأشياء محوراً وإثباتاً، فكيف نرجو لما منع منالاً، أو نستطيع مما قدر إفلاتاً. أفيدونا ما يرجح العقيدة المقررة، نتحول إليه، وبينوا لنا الحق، نعول عليه. الله الله ياسيدي في النفس المرشحة، وللذات المحلات بالفضايل الموشحة، والسلف الشهير الخير، والعمر المشرف على الرحلة بعد حث السير، ودع الدنيا لأهلها، فما أركس حطوظهم، وأخس لحوظهم، وأقل متاعهم، وأعجل إسراعهم، وأكثر عناؤهم، وأقصر أناؤهم:ك من شارة أنسك، ويحتال على فراغ كيسك، ويضمر الشر لك ولرسيك، وأي راحة لمن لايباشر قصده، ويسير متى شا وحده، ولو صح في هذه الحال لله حظ، وهبه زهيداً، أوعين للرشد عملاً حميداً، لساغ الصاب، وخفت الأوصاب، وسهل المصاب. لاكن الوقت أشغل والفكر أوغل، والزمن قد غمرته الحصص الوهمية، واستنفدت منه الكمية. أما ليله ففكر أو نوم، وعتب يجر الضراس ولوم، وأما يومه فتدبير، وقبيل ودبير، وأمور يعيا بها ثبير، وبلاء مبير، ولغط لايدخل فيه حكيم كبير، وأنا بمثل ذلك خبير. ووالله ياسيدي، ومن فلق الحب وأخرج الأب، وذرا من مشى ومادب، وسمى نفسه

الرب، لو تعلق المال الذي يجده هذا الكدح، ويورى سقيطه هذا القدح، بإذيال الكواكب، وزاحمت البدر بدره بالمناكب، لاورثه عقب، ولاخلص به محتقب، ولا فاز به سافر ولا منتقب. والشاهد الدول والمشايم الأول. فأين الرباع المقتناة، وأين الديار المبتداة، وأين الحدايق المغترسات، وأين الذخاير المختلسات، وأين الودايع المؤملة، وأين الأمانات المحملة، تأذن الله بتتبيرها، وإدناء وتار التيار من دنانيرها، فقفلما تلقى أعقابهم إلا أعرباً للطمور، مترمقين بجرايات الشهور، متعللين بالهباء المنثور، يطردون من الأبواب التي حجب عندها آباؤهم، وعرف منها إباؤهم، وشم من مقاصيرها عنبرهم وكباؤهم، لم تسامحهم الأيام إلا في إرث محررٍ، أو حلال مقرر، وربما محقة الحرام، وتعذر منه المرام. هذه أعزك الله حال قبولها مالها مع الترفيه، وعلى فرض أن يستوفي العمر في العز مستوفيه. وأما ضده من عدو يتحكم وينتقم، وحوت بغى يبتلع ويلتقم، وطبق يحجب الهواء ويطيل في التراب الثوا، وثعبان قميد يعض الساق، وشوبوب عذاب يمزق الإبشار الرقاق، وغيلة يهديها الواقب الغاسق، ويوجرعها العدو الفاسق، مع الأفوال ولا شروق، فهل في شئ من هذا مغتبط لنفس حرة، أو مايساوى جرعة حالٍ مرة.. واحسرتاه للأحلام ضلت، وللأقدام زلت، ويالها مصيبة جلت، ولسيدي أن يقول حكمت على باستثقال الموعظة واستجفائها، ومراودة الدنيا بين خلانها وأكفايها،

وتناسى عدم وفايها، فأقول الطبيب بالعلل أدرى، والشفيق بسوء الظن مغرى. وكيف لا وأنا أقف على السحاآت، بخط سيدي، من مطارح الاعتقال، ومثاقف النوب الثقال، وحلوات الاستعداد للقاء الخطوب الشداد، ونوش الأسنة الحداد، وحيث يجمل تمثله ألا تصرف في غير الخضوع لله بناناً، ولايثنى لمخلوق عناناً. وأتعرف أنها قد ملأت الجو الدو، وقصدت الجماد والبو، تقتحم أكف أولى الشمات، وحفظة المذمات، وأعوان النوب الملمات، زيادة في الشقا، وقصد أبرياء من الاختيار والانتق، مشتملة من التجاوز على إغرب من العنقا، ومن النقاق على أشهر من البلقا. فهذا يوصف بالإمامة، وهذا ينسب في الجود إلى كعب بن مامة، وهذا يجعل من أهل الكرامة، وهذا يجعل من أهل الكرامة، وهذا يكلف الدعاء وليس من أهل، وهذا يطلب منه لقا الصالحين وليسوا من شكله، إلى ما أحفظنى والله من البحث عن السموم، وكتب النجوم، والمذموم من المعلوم، هلا كان من ينظر في ذلك قد قوطع بتاتاً، وأعتقد أن الله جعل لزمن الخير والشر ميقاتاً، وأنا لانملك موتاً ولا نشوراً ولا حياتاً، وأن اللوح قد حصر الأشياء محوراً وإثباتاً، فكيف نرجو لما منع منالاً، أو نستطيع مما قدر إفلاتاً. أفيدونا ما يرجح العقيدة المقررة، نتحول إليه، وبينوا لنا الحق، نعول عليه. الله الله ياسيدي في النفس المرشحة، وللذات المحلات بالفضايل الموشحة، والسلف الشهير الخير، والعمر المشرف على

الرحلة بعد حث السير، ودع الدنيا لأهلها، فما أركس حطوظهم، وأخس لحوظهم، وأقل متاعهم، وأعجل إسراعهم، وأكثر عناؤهم، وأقصر أناؤهم:

مـــاتم إلا مـــا رأيـــت	وربمـــا تعـــي الســـلامة
والنـــاس إمـــا جـــائر	أو حـــاير يشـــكو ظلامـــه
والله مـــا احتقـــب الحـــريص	ســـوى الـــذنوب أو الملامـــة
هـــل ثم شـــك في المعـــاد	الحـــق أو يـــوم القيامـــة
قولـــوا لنـــا ماعنـــدكم	أهـــل الخطابـــة والإمامـــة

وإن رميت بأحجارى، وأوحرت المر من أشجارى، فوالله ماتلبست منها لليوم بشيء قديم ولا حديث، ولا استاثرت بطيب فضلاً عن خبيث. وما أنا إلا عابر سبيل، وهاجر مرعى وبيل، ومرتقب وعد قدر فيه الإنجاز، وعاكف على حقيقة لا تعرف المجاز قد فررت من الدنيا كما يفر من الأسد، وحاولت المقاطعة، حتى بين روحي والجسد، وغسل الله قلبي، وله الحمد، من الطمع والحسد، فلم أبق عادة إلا قطعتها، ولا جنة للصبر إلا ادرعتها. أما اللباس فالصوف، وأما الزهد فيما في أيدي الناس فمعروف، وأما المال الغبيط فعلى الصدقة مصروف. ووالله لو علمت أن حالي هذه تتصل، وعراها لاتنفصل، وأن ترتيبي هذا يدوم، ولا يجيزني الوعد المحتوم، والوقت المعلوم، لمت أسفاً، وحسبي الله وكفا ومع هذا ياسيدي، فالموعظة

تتلقى من لسان الوجود، والحكمة ضالة المؤمن يطلبها ببذل المجهود، ويأخذها من غير اعتبار بمحلها المذموم أو المحمود. ولقد أعملت نظرى فيما يكافئ عني بعض يدك، أو ينتمي في الفضل إلى أمدك، فلم أر لك الدنيا كفا. هذا لو كنت صاحب دنيا، وألفيت بذل النفس قليلاً لك من غير شرطٍ ولا ثنيا، فلما ألهمني الله لمخاطبتك بهذه النصيحة المفرغة في قالب الجفا، لمن لايثبت عين الصفا، ولا يشيم بارقه الوفا، ولايعرف قاذورة الدنيا معرفة مثلى من المتدنسين بها لا منهمكين، وينظر عوراه الفادح بعين اليقين، يعلم أنها المومسة التي حسنها زور، وعاشقها مغرور، وسرورها شرو، تبين لي أني قد كافيت صنيعتك المتقدمة، وخرجت عن عهدتك الملتزمة، ومحضت لله النصح الذي يقر بعز الله ذاتك، ويطيب حياتك، ويحي مواتك، ويريح جوارحك من الوصب، وقلبك من النصب، ويحقر الدنيا وأهلها في عينك إذا اعتبرت، ويلاشى عظايمها لديك إذا اختبرت، كل من تقع عليه عينك حقير قليلن وفقير ذليل، لايفضلك بشيء إلا باقتفاء رشد أو ترك غى، أثوابه النبيهة يجردها الغاسل، وعروة غيره يفصلها الفاصل، وماله الحاضر الحاصل، يعيث فيه الحسام الفاصل، والله ماتعين للخلف إلا ماتعين للسلف، ولامصير المجموع إلا إلى التلف، ولا صح من الهياط والمياط، والصياح والعياط، وجمع القيراط إلى القيراط، والاستظهار بالوزعة والأشراط، والخبط والخباط، والاستكثار

والاغتباط، الغلو والاشتطاط، وبنا الصرح وعمل الساباط، ورفع العماد وإدارة الفسطاط، إلا ألم يذهب القوة، وبنسى الآمال المرجوة، ثم نفس يصعد، وسكرات تتردد، وحسرات لفراق الدنيا تتجدد، ولسان يثقل، عين تبصر الفراق الحق وتمقل. قل هو نبأ عظيم، أنتم عنه معرضون. ثم القبر وما بعده، والله منجز وعيده ووعده. فالإضراب وافضراب، والتراب التراب، وإن اعتذر سيدى بقلة الجلد، لكثرة الولد، فهو ابن مرزوق، لا ابن رزاق، وبيده من التسبب، ما يتكفل بإمساك أرماق. أين النسخ الذي يتبلغ الإنسان بأجرته، في كن حجرته، لابل السؤال الذي لاعار عند الحاجة بمعرته، السؤال والله أقوم طريقاً، وأكرم فريقاً، من يد تمتد إلى حرام، لا يقوم بمرام، ولا يومن من ضرام أحرقت فيه الحلل، وقلبت الأديان والملل، وضربت الابشار، ونحرت العشار، ولم يصل منه على يدي واسطة السوؤ المعشار. ثم طلب عند الشدة ففضح، وبان سومه ووضح، اللهم طهر منا أيدينا وقلوبنا، وبلغنا من الانصراف إليك مطلوبنا، وعرفنا بمن لايعرف غيرك، ولا يسترفد إلا خبرك يألله. وحقيق على الفضلاء إن جنح سيدي منها إلى إشارة، أو أعمل في احتلابها إضباره. أولبس منها شارة، أو تشوف إلى خدمة إمارة، ألا يحسنوا ظنونهم بعدها بابن ناس، ولا يغتروا بسمت ولا خلقٍ ولا لباس، فما عدا عما بدا. تقضي العمر في سجن وقيد، وعمرو وزيد، وضر وكيد، وطراد صبد، وسعد وسعيد،

وعبد وعبيد، فمتى تظهر الأفكار، ويقر القرار، وتلازم الأذكار، وتشام الأنوار، وتتجلى الأسرار، ثم يقع الشهود الذي تذهب معه الأفكار، ثم يحق الوصول الذي إليه من كل ماسواه الفرار، وعليه السدار. وحق الحق، الذي ماسواه فباطل، والفيض الرحماني، الذي ربابه لابد هاطل، ماشاب مخاطبتي لك شايبة بريب، ولقد محضت لك مايمحضه الحبيب إلى الحبيب، فيحمل جفا في الذي حملت عليه الغيرة، ولاتظن بي غيره. وإن أقدر قدرى في مكاشفة سيادتك بهذا البث، في الأسلوب الرث، فالحق أقدم، وبناؤه لايهدم، وشأني معروف في مواجهة الجبابرة، على حين يدى إلى رفدهم ممدودة، ونفس في النفوس المتهافتة عليهم معدودة، وشبابي فاحم، وعلى الشهوات مزاحم، فكيف بي اليوم مع الشيب، ونصح الجيب، واستكشاف العيب، إنما أنا اليوم على كل من عرفني كل ثقيل، وسيف العدل في كفى صقيل، أعذل أهل الهوى، وليست النفوس في القبول سوا، ولا لكل من ضر دوا، وقد شفيت صدري، وإن جهلت قدري، فاحملني حملك الله على الجادة الواضحة، وسحب عليك ستر الأبوة الصالحة، والسلام.ة عليهم معدودة، وشبابي فاحم، وعلى الشهوات مزاحم، فكيف بي اليوم مع الشيب، ونصح الجيب، واستكشاف العيب، إنما أنا اليوم على كل من عرفني كل ثقيل، وسيف العدل في كفى صقيل، أعذل أهل الهوى، وليست النفوس في القبول سوا، ولا لكل من ضر دوا، وقد شفيت صدري،

وإن جهلت قدري، فاحملني حملك الله على الجادة الواضحة، وسحب عليك ستر الأبوة الصالحة، والسلام.

ولما شرح كتاب "الشفا".. للقاضي أبي الفضل عياض بن موسى ابن عياض رحمه الله، واستبحر فيه، طلب أهل العدوتين بنظم مقطوعات تتضمن الثناء على الكتاب المذكور، وإطراء مؤلفة، فانثال عليه من ذلك الطم والرم، بما تعددت منه الأوراق، واختلفت في الإجاجة وغيرها الأرزاق، وإيثاراً لغرضه، ومبادرة من أهل الجهات لإسعاف أريه، وطلب مني أن ألم في ذلك بشيء، فكتبت في ذلك:

شفا عياض للصدور شفاء	وليس بفضل قد حواه خفاء
هدية بر لم يكن لجزيلها	سوى الأدر والذكر الجميل كفاء
وفي لنبي الله حق وفاته	وأكرم أوصاف الكرام وفاء
وجاء به بحراً بقول بفضله	على البحر طعم طيب وصفاء
وحق رسول الله بعد وفاته	رعاه وإغفال الحقوق جفاء
هو الذخر يغني في الحياة عتاده	ويترك منه اليقين رفاء
هو الأثر المحمود ليس يناله	دثور ولا يخشى عليه عفاء
حرصت على الإطناب في نشر	فضله وتمجيده لو ساعدتني فاء

واستزاد من هذا الغرض، الذي لم يقنع منه بالقليل، فبعثت إليه من محل انتقالي بمدينة سلا حرسها الله:

أأزاهير رياض	أم شفاء لعياض

جدل الباطل للحق بأسياف مواض
وشفى من يشتكي الغلة في زرق الحياض
أي بنيان معار آمن فوق انقضاض
أي عهد ليس يرمى بانتكاث وانتقاض
ومعان في سطور كأسود في غياض
وشفاء لصدور من ضنى الجهل مراض
حرر القصد فما شين بنقد واعتراض
يا أبا الفضل أذر بأن الله عن سعيك راض
فاز عبد أقرض الله برجحان القراض
وجبت عز المزايا من طوال وعراض
لك يا أصدق راو لك يا أعدل قاض
لرسول الله وفيت بجد وانتهاض
خير خلق الله في حالٍ وفي آت وماض
سدد الله ابن مرزوق إلى تلك المراض
زبدة العرفان معنى كل نسك وارتباض
فتولى بسط ما أجملت من غر انقباض
ساهر لم يدر في استخلاصه طعم اغتماض
دام في علو ومن عاداه يهوى في انخفاض
ما وشى الصبح الدياجي في سواد ببياض

ثم نظمت له أيضاً في الغرض المذكور، والإكثار من هذا النمط، في هذا الموضع، ليس على سبيل التبجح بغرابته وإجادته، ولاكن على سبيل الإشادة بالشرح المشار إليه، فهو بالغ غاية الإستبحار.

حييت يا مختط يبت بن نوح ... بكل مزن يغتدى أو يروح
وحمل الريحان ريح الصبا ... أمانة ي كل إلى كل روح
دار أبي الفضل عياض الذي ... أضحت برياه رياضاً تفوح
يا ناقل الآثار يعنى بها ... وواصلاً في العلم جرى الجموح
طرفك في الفخر بعيد المدا ... طرفك للمجد شديد الطموح
كفاك إعجازاً كتاب الشفا ... والصبح لا ينكر عند الوضوح
لله ما أجزلت فينا به من ... منحة تقصر عنها المنوح
فمن بيان الحق زهر ند ... ومن لسان الصدق طير صدوح
تأرج العرف وطاب الجنى ... وكيف لا يثمر أو لا يفوح
تأرج العرف وطاب الجنى ... وكيف لايثمر أو لا يفوح
وحلة من طيب خير الورى ... في الجيب والأعطاف منها نضوح
ومعلم للدين شيدته ... فهذه الأعلام منه تلوح
فقل لهامان كذا أو فلا ... يامن أضل الرشد تبنى الصروح
في أحسن التقويم أنشأته ... خلقاً جديداً بين جسم وروح
فعمره المكتوب لا ينقضي ... إذا تقضى عمر سام ونوح
كأنه في الحف ريح الصبا ... وكل عطف فهو غض مروح
ما عذر مشغوف بخير الورى ... إن هاج منه الذكر أن لا يبوح
عجبت من أكباد أهل الهوى ... وقد سطا البعد وطال النزوح

إن ذكــر المحبــوب ســالت دمــا	مــا هــن أكبــاد ولكــن جــروح
يا ســيد الأوضــاع يا مــن لــه	بســيد الإرســال فضــل الرجــوع
يا مــن لــه الفخــر علــى غــيره	والشهب تخفى عند إشراق يوح
ياخـــير مشـــروح وفي واكتفـــى	منــه ابــن مــرزوق بخير الشــروح
فـــتح مـــن الله جـــاه بـــه	ومــن جنــاب الله تاتــى الفتــوح

مولده:

بتلمسان عام أحد عشر وسبعماية.

ابن بطوطة

محمد بن عبد الله بن محمد بن إبراهيم بن عبد الرحمن ابن يوسف اللواتي من أهل طنجة، يكنى أبا عبد الله، ويعرف بابن بطوطة.

حاله

من خط شيخنا أبي البركات، قال، هذا رجل لديه مشاركة يسيرة في الطلب، رحل من بلاده إلى بلاد المشرق يوم الخميس الثاني من رجب عام خمسة وعشرين وسبعماية، فدخل بلاد مصر والشام والعراق، وعراق العدم، وبلاد الهند والسند، والصين، وصين الصين، وبلاد اليمن. وحج عام ستة وعشرين وسبعماية. ولقي من الملوك والمشايخ عالماً، وجاور بمكة. واستقر عند ملك الهند، فحظي لديه، وولاه القاضاء، وأفاده مالاً جسيماً. وكانت رحلته على رسم الصوفية

زيا وسجية، ثم قفل إلى بلاد المغرب، ودخل جزيرة الأندلس، فحكمى بها أحوال المشرق، وما استفاد من أهله، فكذب، وقال، لقيته بغرناطة، وبتنا معه ببستان أبي القاسم ابن عاصم بقرية نبلة، وحدثنا في تلك الليلة، وفي اليوم قبلها عن البلاد المشرقية وغيرها، فأخبر أنه دخل الكنيسة العظمى بالقسطنطنية العظمى، وهي على قدر مدينة مسقفة كلها، وفيها اثني عشر ألف أسقف. قلت، وأحاديثه في الغرابة أبعد من هذا. وانتقل إلى العدوة، فدخل بلاد السودان، ثم تعرف أن ملك المغرب استدعاه، فلحق ببابه. وأمر بتدوين رحلته.

ساير الأسماء في حرف الميم الملوك والأمراء، وما منهم إلا طارئ علينا أو غريب.

القرطبي

عبد الله بن الحسن بن أحمد بن يحيى بن عبد الله الأنصاري مالقى، قرطبي الأصل، يكنى أبا محمد، ويعرف بالقرطبي، وقرأ بغرناطة.

حاله

كان في وقته ببلده، كامل المعارف، صدرا في المقرئين والمجودين، رئيس المحدثين وإمامهم، واسع المعرفة، مكثراً، ثقة، عدلاً، أمينا، مكين الرواية، رايق الخط، نبيل التقييد والضبط، ناقداً، ذاكراً أسماء رجال

الحديث وطبقاتهم وتواريخهم، وما حلوا به من جرح وتعديل، لا يدانيه أحد في ذلك، عزيز النظر، متيقظاً، متوقد الذهن، كريم الخلال، حميد العشرة، دمثاً، متواضعاً، حسن الخلق، محبباً إلى الناس، نزيه النفس، جميل الهيئة، وقوراً، معظماً عند الخاصة والعامة، ديناً، زاهداً، ورعاً، فاضلا، نحوياً ماهراً، ريان من الأدب، قائلاً الجيد من الشعر، مقصدا ومقطعاً، وكان له بجامع مالقة الأعظم، مجلس عام، سوى مجلس تدريسه، يتكلم فيه على الجديث، إسناداً ومتناً، بطريقة عجز عنها الكثير من أكابر أهل زمانه. وتصدر للإقراء ابن عشرين سنة. من أخباره في العلم والذكاء: قالوا قرئ عليه يوماً باب الابتداء بالكلم التي يلفظ بها في إيضاح الفارس، وكان أحسن الناس قياماً عليه فتكلم على المسألة الواقعة في ذلك الباب، المتعلقة بعلم العروض، وكان في الحاضرين من أحسن صناعته، فجاذبه الكلام، وضايقه المباحثه، حتى أحس الأستاذ من نفسه التقصير، إذ لم يكن له قبل كبير نظر في العروض، فكف عن الخوض في المسألة، وانصرف إلى منزله، وعكف ساير اليوم على تصفح علم العروض، حتى فهم أغراضه، وحصل تواليفه وصنف فيه مختصراً نبيلاً، لخص في صدوره ضروبه، وأبدع فيه بنظم مثله، وجاء به من الغد، معجزاً من رآه أو سمع به، فبهت الحاضرون وقضوا العجب من اقتداره وذكائه، ونفوذ فهمه، وسمو همته.

ومن أخباره في الدين: قال أبو أحمد جعفر بن زعرور العاملي المالقي تلميذه الأخص به، بت معه ليلة في دويرته التي كانت له بجبل فاره للإقراء والمطالعة، فقام ساعة كنت فيها يقظانا، وهو ضاحك مسرور، يشد يده كأنه ظفر بشيء نفيس، فسألته فقال، رأيت كأن الناس قد حشروا في العرض على الله، وأتى بالمحدثين، وكنت أرى أبا عبد الله النصيرى يؤتى به، فيوقف بين يدي الله تعإلى، فيعطى براءته، من النار، ثم يؤتى بي، فأوقفت بين يدي ربي، فأعطاني براءتي من النار، فاستيقظت، وأنا أشد عليها يدى ربي، فأعطاني براءتي من النار، فاستيقظت، وأنا أشد عليها يدي اغتباطا بها وفرحا، والحمد لله.

مشيخته

تلا بمالقة على أبيه، وأبي زيد السهيلى، والقاسم بن دحمان، وروى عنهم، وعن أبي الحجاج بن الشيخ، وأبوي عبد الله بن الفخار، وابن نوح، وابن كامل، وابن جابر، وابن بونة. وبالمنكب عن عبد الوهاب الصدفي. وحضر بمالقة مجلس أبي إسحق بن قرقول. وبإشبيلية عن أبي بكر بن الجد، وابن صاف، وأبي جعفر بن مضاء، وأبوي الحسن عبد الرحمن بن مسلمة، وأبي عبد الله بن زرقون، وأبي القاسم بن عبد الرازق، وأبي محمد بن جمهور. وبغرناطة عن أبوي جعفر بن حكم الحصار، وابن شراحيل، وأبي عبد الله بن عروس، وأبوي محمد

عبد الحق النوالشي، وعبد المنعم بن الفرس. وبمرسية عن أبي عبد الله بن حميد، وأبي القاسم بن حبيش، وبسبتة عن أبي محمد الحجري. وأجاز له من الأندلس ابن محرز وابن حسون وابن خيرة، والأركشي، وابن حفص وابن سعادة، ويحيى المجريطي، وابن بشكوال، وابن قزمان. ومن أهل المشرق جماعة كبيرة.

شعره وتصانيفه

ألف في العروض مجموعات نبيلة، وفي قراءة نافع. ولخص أسانيد الموطأ. وله المبدي لخطإ الرندي. ودخل يوماً بمجلس أقرأ به أبو الفضل عياض، وكان أفتى منه، غير أن الشيب جار عليه، وتأخر شيب الأستاذ، فقال يا أستاذ شبنا وما شبتم، قال فأنشده ارتجالاً:

وهل نافع أن أخطأ الشيب مفرقي   وقد شاب أترابي وشاب لداتي
لئن كان خطب الشيب يوجد حسه   بتربي فمعناه يقوم بذاتي

ومن شعره في التجنيس:

لعمرك ما الدنيا بسرعة سيرها   بسكانها إلا طريق مجاز
حقيقتها أن المقام بغيرها   ولكنهم قد أولعوا بمجاز

ومما يؤثر أيضاً من شعره قوله:

سهرت أعين ونامت عيون   لأمور تكون أو لا تكون
فاطرد الهم ما استطعت عن   النفس فحملانك الهموم جنون

إن رباً كفاك بالأمس ما كان فسيكفيك في غد ما يكون

مولده

ولد أبو محمد قريب ظهر يوم الاثنين لثمان بقين من ذي القعدة عام ستة وخمسين وخمسماية.

وفاته

سحر ليلة السبت أو سحر يومها، ودفن إثر صلاة العصر من اليوم السابع لربيع الآخر سنة أحد عشر وستماية.

من رثاه رثاه الأديب أبو محمد عبد الله بن حسون البرجي من قصيدة حسنة طويلة:

خليلي هبا ساعداني بعبرة وقولاً لمن بالري ويحكم هبوا
نبكي العلى والمجد والعلم والتقي فمأتم أحزاني نوائحه الصحب
فقد سلب الدين الحنيفي روحه ففي كل سرب من نباهته نهب
وقد طمست أنوار سنة أحمد وقد خلت الدنيا وقد ظعن الركب
مضى الكوكب الوقاد والمرهف الذي يصحح في نص الحديث فما ينب
تمنى علاه النيران ونوره وقالا بزعم أنه لهما ترب
أأسلو وبحر العلم غيضت مباهة ومحيى رسوم العلم يحجبه الترب
عزيز على الإسلام أن يودع الثرى مسدده الأسرى وعلله الندب
بكى العالم العلوي والسبع حسرة أولئكم حزب الله ما فوقهم حزب
على القرطبي الحبر أستاذنا الذي على أهل هذا العصر فضله الرب

فقد كان فيما مضى من زمانه ... به تحسن الدنيا ويلتئم الشعب
ويجمع سرب الأنس روض حياتة ... فقد جف ذاك الروض وافترق السرب
فسحقاً لدنيا خادعتنا بمكرها ... إذا عاقدت سلما فقصدها حرب
ركبنا السهل الذلول فقادنا ... إلى كل ما في طيه مركب صعب
وتغفل عنها والردى يستفزنا ... كفى واعظاً بالموت لو كان لي لب

ترجمة ابن الخطيب مكتوبة بقلمه

بسم الله الرّحمن الرّحيم وصلّى الله على سيّدنا محمد، وعلى آله وصحبه وسلّم تسليما يقول مؤلف هذا الديوان، تغمّد الله خطله في ساعات أضاعها، وشهوة من شهوات اللسان أطاعها، وأوقات للاشتغال بما لا يعنيه، استبدل بها اللهو لما باعها:

أمّا بعد حمد الله الذي يغفر الخطيّة، ويحثّ من النّفس اللّجوج المطيّة، فيحرّك ركابها البطيّة، والصلاة على سيدنا ومولانا محمد ميسّر سبل الخير القاصدة الوطيّة، والرضا عن آله وصحبه منتهى القصد ومناخ الطّيّة، فإني لمّا فرغت من تأليف هذا الكتاب الذي حمل عليه فضل النشاط، مع الالتزام لمراعاة السياسة السلطانية والارتباط، والتفتّ إليه فراقني منه صوان درر، ومطلع غرر، قد تخلّدت مآثرهم بعد ذهاب أعيانهم، وانتشرت مفاخرهم بعد انطواء زمانهم، نافستهم في اقتحام تلك الأبواب، ولباس تلك الأثواب، وقنعت باجتماع الشّمل بهم ولو في الكتاب. وحرصت على أن أنال منهم قربا،

وأخذت من أعقابهم أدبا وحبّا، وكما قال: ساقي القوم آخرهم شربا، فأجريت نفسي مجراهم في التّعريف، وحذوت بها حذوهم في باب النّسب والتّصريف، بقصد التشريف، والله لا يعدمني وإيّاهم واقفا يترحّم، وركاب الاستغفار بمنكبيه يزحم، عندما ارتفعت وظائف الأعمال، وانقطعت من التّكسّبات حبال الآمال، ولم يبق إلّا رحمة الله التي تنتاش النفوس وتخلّصها، وتعينها بميسم السّعادة وتخصصها، جعلنا الله ممّن حسن ذكره، ووقف على التماس ما لديه فكره، بمنّه.

المؤلف:

محمد بن عبد الله بن سعيد بن عبد الله بن سعيد بن علي بن أحمد السّلماني. قرطبي الأصل، ثم طليطليّه، ثم لوشيّه، ثم غرناطيّه. يكنى أبا عبد الله، ويلقّب من الألقاب المشرقية بلسان الدين.

أوّليّتي:

يعرف بيتنا في القديم ببني وزير، ثم حديثا بلوشة ببني الخطيب.

انتقلوا مع أعلام الجالية القرطبية، كيحيى بن يحيى الليثي وأمثاله، عند وقعة الرّبض الشهيرة إلى طليطلة، ثم تسرّبوا محوّمين على وطنهم، قبل استيلاء الطاغية عليها، فاستقرّ منهم بالموسطة الأندلسية جملة من النبهاء، تضمّن منهم ذكر خلف، كعبد الرحمن قاضي كورة باغة،

وسعيد المستوطن بلوشة، الخطيب بها، المقرون اسمه بالتّسويد عند أهلها، جاريا مجرى التسمية بالمركّب، تضمن ذلك تاريخ الغافقي وغيره. وتناسل عقبهم بها، وسكن بعضهم بمنتفريو، مملكين إياها، مختطين قبل التحصين والمنعة، فنسبوا إليها. وكان سعيد هذا، من أهل العلم، والخير والصلاح، والدّين والفضل، وزكاء الطعمة. وقفني الشيخ المسنّ الوزير أبو الحكم بن محمد المنتفريدي، رحمه الله، وهو بقية هذا البيت وإخباريه، على جدار برج ببعض ربى أملاكنا بلوشة، تطأه الطريق المارة من إغرناطة إلى إشبيلية، وقال: كان جدّك يربع بهذا المكان فصولا من العام، ويجهر بقراءة القرآن، فيستوقف الرّفق المدلجة، الحنين إلى نغمته، والخشوع لصدقه، فتعرّس رحالها لصق جداره، وتريح ظهرها موهنا، إلى أن يأتي على ورده. وتوفي، وقد أصيب بأهله وحرمته، عندما تغلب العدوّ على بلده عنوة في خبر طويل. وقفت على مكتوبات من المتوكل على الله، محمد بن يوسف بن هود، أمير المسلمين بالأندلس، [القائم بها بدعوة الأئمة من ولد العباس، رضي الله عنهم، ومن ولده أبي بكر الواثق بالله ولي عهده،] في غرض إعانته، والشّفاعة إلى الملكة زوج سلطان قشتالة، بما يدلّ على نباهة قديم ويفيد إثارة عبرة، واستقالة عثرة.

وتخلّف ولده عبد الله، جاريا مجراه في التجلّة، والتّمعش من حرّ النّشب، والتزيّي بالانقباض، والتحلّي بالنزاهة، إلى أن توفي، وتخلّف ولده سعيد جدّنا الأقرب، وكان صدرا خيّرا، مستوليا على خلال حميدة، من خطّ وتلاوة وفقه، وحساب، وأدب، نافس جيرته من بني الطّنجالي الهاشميين، وتحوّل إلى غرناطة، عندما شعر بعملهم على الثورة، واستطلاعهم إلى النّزوة التي خضدت الشوكة، واستأصلت منهم الشّأفة، وصاهر بها الأعيان من بني أضحى بن عبد اللطيف الهمداني، أشراف جند حمص، الداخلين إلى الجزيرة في طليعة بلج بن بشر القشيري، ولحقه من جرّاء منافسيه، لما جاهروا السلطان بالخلعان، اعتقال أعتبه السلطان بعده وأحظاه على تفئته، وولّاه الأعمال النّبيهة، والخطط الرّفيعة. حدّثني من أثقه، قال: عزم السلطان أن يقعد جدّك أستاذا لولده، فأنفت من ذلك أمّ الولد، إشفاقا عليه من فظاظة كانت فيه. ثم صاهر القوّاد من بني الجعدالة على أمّ أبي، وتمتّ إلى زوج السلطان ببنوّة الخؤولة، فنبه القدر، وانفسحت الحظوة، وانتاب البيت الرؤساء والقرابة. وكان على قوّة شكيمته، وصلابة مكسرة، مؤثرا للخمول، محبّا في الخير. حدّثني أبي عن أمّه، قالت: قلّما تهنّأنا نحن وأبوك طعاما حافلا لإيثاره به من كان يكمن بمسجد جواره، من أهل الحاجة، وأحلاف الضرورة، يهجم علينا منهم بكل وارش «١»، يجعل يده ثني يده «٢»، ويشركه في أكيلته،

ملتذّا بموقعها من فؤاده. توفي «٣» في ربيع الآخر من عام ثلاثة «٤» وثمانين وستمائة، صهرته الشمس مستسقيا في بعض المحول، وقد استغرق في ضراعته، فدلّت الحتف على نفسه.

وتخلّف والدي، نابتا في الترّف نبت العلّيق، يكنفه رعي أيّم «٥»، تجرّ ذيل النعمة «٦»، وتحنو منه على واحد تحذر عليه الحولى من ولد الذر «٧»، ففاته لترفه حظّ كبير من الاجتهاد. وعلى ذلك فقرأ على الخطيب أبي الحسن البلّوطي، والمقرئ أبي عبد الله بن مستقور «٨»، وأبي إسحاق بن زورال، وخاتمة الجلّة أبي جعفر بن الزّبير، وكان يفضّله. وشارك «٩» أهل عصره في الرّواية المستدعاة عن أعلام المشرق، كجار الله أبي اليمن وغيره. وانتقل إلى لوشة بلد سلفه، مقيما للرسم «١٠»، مخصوصا بلقب الوزارة، مرتّبا بعادة الترّف «١١»، إلى أن قصدها السلطان أبو الوليد، متخطّيا إلى الحضرة، هاويا إلى ملك البيضة «١٢»، وأجزل نزله، وعضّد أمره، وأدخله بلده، لدواع يطول استقصاؤها. ولمّا تمّ له الأمر، صحبه «١٣» إلى دار ملكه، مستأثرا بشقص عريض من دنياه. وكان من رجال الكمال، طلق الوجه، أنيق المجلس، حلو النادرة، مستوليا على كثير من الخصل، متجنّدا مع الظرف، تضمّن كتاب «التّاج المحلّى» و«الإحاطة» جزءا رائعا «١٥» من شعره، وفقد في الكائنة العظمى

بطريف، يوم الاثنين السابع «١٦» من جمادى الأولى عام «١٧» أحد وأربعين وسبعمائة، ثابت الجأش، غير جزوع ولا هيّابة. حدّث «١٨» الخطيب بالمسجد الجامع من غرناطة، الفقيه أبو عبد الله بن اللوشي، قال: كبا بأخيك الطّرف يومئذ «١»، وقد غشى العدو، وجنحت إلى إردافه، فانحدر إليه والدك وصرفني، وقال: أنا أولى به، فكان آخر العهد بهما «٢».

وخلفني «٣» عالي الدرجة، شهير الخطّة، مشمولا بالقبول، مكنوفا بالعناية، «وإن تعدّوا نعمة الله لا تحصوها». فقلّدني السلطان كتابة سرّه، ولمّا يجتمع الشباب، ويستكمل «٤» السّن، معزّزة بالقيادة، ورسوم الوزارة، واستعملني في السّفارة إلى الملوك، واستنابني بدار ملكه، ورمى إلى يدي بخاتمه وسيفه، وائتمنني على صوان ذخيرته «٥» وبيت ماله، وسجوف حرمه، ومعقل امتناعه. ومن فصول منشوره:

«وأطلقنا يده على كل ما جعل الله لنا النّظر فيه». ولما هلك، قدّس الله روحه، ضاعف ولده، مولاي رضي الله عنه، حظوتي، وأعلى مجلسي، وقصر المشورة على نصحي، إلى أن كانت عليه الكائنة، فاقتدى فيّ، أخوه المتغلب على الأمر «٦»، فسجل الاختصاص، وعقد القلادة، ثم قطع الإبقاء، وعكس الاختصاص، وحلّ القلادة، لمّا

حمله أولو «٧» الشحناء من أعوان ثورته على القبض عليّ، فكان ذلك، وقبض «٨» عليّ، ونكث ما أبرم من أمانيّ، واعتقلت بحال ترفيه. وبعد أن كبست المنازل والدّور، واستكثر من الحرس، وختم على الأعلاق، وأبرد «٩» إلى ما نأى «١٠»، فاستؤصلت نعمة لم تكن بالأندلس من ذوات النظائر ولا ربّات الأمثال، في تبحّر الغلّة، وفراهة الحيوان، وغبطة العقار، ونظافة الآلات، ورفعة الثياب، واستجادة العدّة، ووفور الكتب، إلى الآنية والخرثى «١١»، والفرش، والماعون، والزجاج، والمحكم «١٢» والطّيب، والذّخيرة، والمضارب، والأقبية «١٣». واكتسحت السّائمة، وثيران الحرث، وظهر الحمولة «١٤»، وقوام الفلاحة، وأذواد «١٥» الخيل، فأخذ الجميع «١٦» البيع، وتناهبتها الأسواق، وصاحبها البخس، ورزأتها الخونة، وشمل الخاصة والأقارب الطّلب، واستخلصت «١» القرى والجنّات «٢»، وأعملت الحيل، ودسّت الإخافة، وطوّقت الذنوب، وأمدّ الله بالصبر «٣»، وأنزل السكينة، وانصرف اللسان إلى ذكر الله تعالى، وتعلّقت الآمال به، وطبقت نكبة مصحفيّة، مطلوبها الذّات، وسبب إفاتتها المال، حسبما قلت عند إقالة العثرة، والخلاص من الهفوة:

تخلّصت منها نكبة مصحفيّة ... لفقداني المنصور من آل عامر

ووصلت الشّفاعة فيّ مكتتبة بخطّ ملك المغرب، وجعل خلاصي شرطا في العقدة، ومسالمة الدولة، فانتقلت صحبة سلطاني المكفور الحقّ إلى المغرب. وبالغ ملكه في برّي، واغيا في حلّة رعيي منزلا رحبا، وعيشا حفضا، وإقطاعا جمّا، وجراية ما وراءها مرمى، وجعلني بمجلسه صدرا. ثم أسعف قصدي في تهنيء الخلوة بمدينة سلا، منوّه الصّكوك، مهنّأ القرار، متفقّدا باللهى والخلع، مخوّل العقار، موفور الحاشية، مخلّى بيني وبين إصلاح معادي، إلى أن ردّ الله تعالى على السلطان أمير المسلمين أبي عبد الله ابن أمير المسلمين أبي الحجاج ملكه، وصيّر إليه حقّه، وصرف إليه كرسيه، فطالبني بوعد ضربته، وعهد في القدوم عليه بولده أحكمته، ولم يوسعني عذرا، ولا فسح في التّرك مجالا. فقدمت عليه بولده، في اليوم الأغرّ المحجّل، وقد ساءه بإمساكه رهينة ظنّه، ونغّص مسرّة الفتح بعده، على حال من التقشّف، والرغبة عمّا بيده، وعزف عن الطمع في الكسب وزهد في الرّفد، حسبما قلت، في بعض المقطوعات في مخاطبته، شكر الله عني فضله:

قـالوا لخدمتـه دعـاك محمـد فكرهتهـا وزهـدت في التّنويـه
فـأجبتهم أنا والمهـيمن كـاره في خدمـة المـولى محـبّ فيـه

عاهدت الله على ذلك، وشرحت صدري إلى الوفاء به، وجنحت إلى الانفصال لبيت الله الحرام نشيدة أملي، ومرمى نيّتي، فعلق بي علوق الكرمة، وصارفني بدار العبرة، وخرج لي عن الضرورة، وأراني أنّ

مؤازرته أبرّ القربة، ووراكنني إلى عهد بخطه، فسح لعامين أمد الثّواء، واقتدى بشعيب صلوات الله عليه، في خطب الزيادة، وعلى تلك النّسبة، وأشهد من حضر من العلية. ثم رمى إليّ بعد ذلك مقاليد رأيه، وحكم عذلي في اختبارات عقله، وغطّى على جفائي بحلمه، وحثا في وجوه شهواته بتراب زجري، ووقف القبول على وعظي، واستنزل هواي في التحوّل، نابيا عن قصدي، واعترف بقبول نصحي، فاستعنت الله عليه، وعاملت وجهه فيه، من غير تلبّس بخديعة، ولا تشبّث بولاية، مقتصرا على الكفاية، حذرا من النّقد، خامل المركب، معتمدا على المنسأة، مستمتعا بخلق النّعل، راضيا بغير النّبيه من الثّوب، مشفقا من موافقة الغرور، هاجرا للزخرف، صادعا بالحقّ في أسواق الباطل، كافّا عن السّخال براثن السباع، مفوّتا للأصول في سبيل الصّدقة. ثم صرفت الفكر إلى بناء الزاوية والمدرسة والتربة، بكر الحسنات بهذه الخطّة، بل بالجزيرة فيما سلف من المدّة، فتأتى بمنّة الله من صلاح السلطان، وعفاف الحاشية، ونشر الأمن، وروم الثغور، وتثمير الجباية، وإنصاف الحماة والمقاتلة، ومقارعة الملوك المجاورة في إيثار المصلحة الدّينية، والصّدع فوق المنابر، ضمانا عن السلطان بترياق سمّ الثورة، وإصلاح بواطن الخاصّة والعامّة ما الله المجازي عليه، والمعوّض من سهر خلعته على أعطافه، وكدّ أعملته من جرّائه، وخطر اقتحمته من أجله، لا للثّريد الأعفر، ولا للجرد تمرح في الأرسان، ولا

للبدر تثقل الأكتاد، فهو الذي لا يضيع عمل عامل من ذكر أو أنثى، سبحانه إليه الرّجعى، والآخرة والأولى. ومع ذلك فقد عادت هيف إلى أديانها من الاستهداف للشّرور، والاستعراض للمحذور، والنّظر الشّزر المنبعث من خزر العيون، شيمة من ابتلاه الله بسياسة الدّهماء، ورعاية سخطة أرزاق السماء، وقتلة الأنبياء، وعبدة الأهواء، ممّن لا يجعل لله إرادة نافذة، ولا مشيئة سابغة، ولا يقبل معذرة، ولا يجمل في الطلب، ولا يتلبّس مع الله بأدب. ربّنا لا تسلّط علينا بذنوبنا من لا يرحمنا، والحال إلى هذا العهد، وهو أول عام أحد وسبعين وسبعمائة «١»، على ما ذكرته، أداله الله بحال السّلامة، وبفيأة العافية، والتمتّع بالعبادة، وربّك يخلق ما يشاء ويختار. وقال الشاعر:

وعليّ أن أسعى وليس عليّ إدراك النجاح

ولله فينا سرّ غيب نحن صائرون إليه، ألحفنا الله بلباس التّقوى، وختم لنا بالسّعادة، وجعلنا في الآخرة من الفائزين. نفثت عن بثّ، وتأوّهت عن حمّى، ليعلم «٤» بعد المنقلب قصدي، ويدلّ مكتتبي على عقدي.

ذكر بعض ما صدر لي من التشريعات الملوكية أيام تأبّشي بهذه الغرور.

من ذلك ظهير من مولاي السلطان أبي عبد الله، عندما صار له أمر والده المقدّس أبي الحجاج، رحمة الله عليه، وقد ثبتّ في المحمدين، في اسم السلطان، أيّده الله، فلينظره هنالك من تشوّف لاحتفاله واحتفائه، وظاهر برّه واعتنائه.

وكتب إليّ مخبرا بما فتح الله عليه، قبل الوصول إليه:

«من أمير المسلمين أبي عبد الله محمد ابن مولانا أمير المسلمين أبي الحجاج ابن مولانا أمير المسلمين أبي الوليد بن نصر، أيّد الله أوامرهم، ونصر أجنادهم المظفّرة وعساكرهم، وخلّد مفاخرهم الكريمة ومآثرهم.

«إلى وليّنا في الله تعالى، الذي نعلم ما له في الإخلاص لجانبنا من حسن المذاهب، ونعتدّ به اعتدادا يتكفّل بنجاح المقاصد والمآرب، وخلاصتنا، الذي نثني على مجده البعيد الغايات، في الشّاهد والغائب، الفقيه، الوزير الجليل، الصّدر الأوحد المثيل، العالم العلم الأوحد، الرّفيع الشهير، الحسيب الأصيل، الماجد الأثيل الخطير، الخطيب البليغ الكبير، الأوحد، الحافل الفاضل الكامل، إمام البلغاء، وصدر الخطباء، وعلم العلماء، وكبير الرؤساء، الحبيب المخلص، الأودّ الأصفى، أبي عبد الله ابن الوزير الفقيه الجليل، الأعزّ الأرفع، الماجد الأسمى، الصّدر الحافل، الفاضل الكامل، الأعلى الكبير، الخطير

الأثير، الأرضى، المعظّم الموقّر، المبرور المقدّس، المرحوم الشهيد، أبي محمد بن الخطيب، وصل الله سعده، وحرس مجده، سلام عليكم، ورحمة الله وبركاته.

أما بعد حمد الله، وليّ الحمد وأهله، وناصر الحقّ، ومطلع أنواره، من آفاق رحمته وفضله، وقاهر كل با غ، وخاذله ومذلّه. والصلاة على سيّدنا ومولانا محمد، صفوة أنبيائه، وخاتم رسله، المبتعث بالهدى ودين الحق، ليظهره على الدّين كلّه، نبي الرحمة، الذي ببركة محبّته نلنا الأمنية، في جمع الدّين ونظم شمله، وبفضيلة جاهه عدنا إلى أرفع رتبة ملكنا، وأعلى محلّه. والرضا على آله وصحبه، المقتدين بهديه في أمرهم كله. فكتبناه إليكم، كتب الله لكم، عزّا لا يبلى جديده، وسعدا لا ينقطع مزيده. من حمرائنا بغرناطة، حرسها الله ومهّدها، ولا متعرّف بفضل الله سبحانه إلّا ما عوّد من ألطافه الخفيّة، وأسدى من صنائعه السّنية، وعنايته التي كفلت ببلوغ الأمنية. والحمد لله كثيرا، كما ينبغي لجلاله، ويليق بصفات كماله، وعندنا من إجلالكم، ما يليق بكمالكم، ومن المعرفة بمقداركم، ما يعرب عن حسن اعتقادنا في كريم نجاركم، ومن قدر أحسابكم، ما يلزم بسببه تعظيم جنابكم. وإلى هذا وصل الله سعدكم، وحفظ مجدكم، فإننا بحسب الودّ الذي نصل لمعاليكم، والحب الذي نضاعفه فيكم، خاطبناكم بهذا المكتوب بشرح ما منّ الله علينا

من الفتح العظيم الذي أشرقت به أقطار هذه البلاد، وما منّ به من العودة إلى ملكنا المتوارث عن كرام الآباء والأجداد، وما أنعم به من قهر ذوي الشّقاق والعناد. وذلك أنّا، أعزّكم الله، طال علينا المقام برندة، ولم نزل نوجه إلى أهل الحصون التي بغربي مالقة وغيرهم، نقصّ عليهم ما ألزمهم الله من الوفاء ببيعتنا، ونحذّرهم عار النّكث لطاعتنا، إلى أن آن آوان الفرج، ونفذ قضاء الله وقدره، بالعودة إلى ما كنا تغلّبنا عليه. فاقتضى نظرنا أن خرجنا إلى مالقة في مائتي فارس، فما وصلنا واديها، وعلم بنا أهلها، إلّا وخرج لنا جميعهم، ملبّين بالبيعة، فرحين بقدومنا. وفي الحين بادرنا لقتال القصبة حتى استخلصت وأنزل من فيها بنواحيها. وليوم آخر، وصلتنا بيعات أهل الجهات التي تواليها، من أنتقيرة، ولوشة، وبلّش، وصالحة، وقمارش، والحمّة، وسائر الحصون الغربية، فلمّا وصل الخبر إلى الغادر الخاسر، خاف وذعر، ورأى أن لا ملجأ له إلّا أن يفرّ، فجمع شرذمته، وألّف حاشيته، وخرج عن الحمراء ليلا في ليلة الخميس الماضي، قريبا من التاريخ، هاربا إلى أرض الكفّار. وفي صبيحة الليلة، وجّه إلينا أهل حضرتنا، وتوجّهت الأجناد إلى بيعتنا، وانصرفنا إلى دار ملكنا، وحللناها يوم السبت الماضي، من غير حرب ولا قتال، بل بفضل الله تعالى، ذي العظمة والجلال. وعرّفناكم بذلك، لتأخذوا بحظّكم من هذه المسرّة الكبرى، إذ أنتم الحبيب الذي لا يشكّ فيه، والخلاصة، الذي نعلم

صدق خلوصه وتصافيه، والله يصل سعودكم، ويحفظ وجودكم، والسلام الكريم عليكم، ورحمة الله وبركاته.

وكتب في يوم الأربعاء الرابع والعشرين لجمادى الثانية، من عام ثلاثة وستين وسبعمائة».

وعند استقراري لديه، وقدومي عليه، أصدر لي هذا الظّهير الكريم، بما يظهر من فصوله:

«هذا ظهير كريم، أقام مراسم الوفاء، وأحيا معالم الحقّ الفسيحة الأرجاء، وقلص ظلال الجود المتكاثفة الأفياء، وجلى بأنوار الحق ظلم الظّلم والاعتداء، وأدّى الأمانة إلى أهلها إذ كانت متعيّنة الأداء. أمر بتسويغ إنعامه، وإبرام أحكامه، أمير المسلمين عبد الله محمد ابن مولانا أمير المسلمين أبي الحجاج ابن مولانا أمير المسلمين أبي الوليد بن نصر، أعلى الله مقامه وشكر إنعامه، لوليّ مقامه، ومحلّ إجلاله وإعظامه، كبير دولته، وفخر مملكته، ومشيّد سلطانه، وعين زمانه، ظهيره الذي ببركاته أنجحت مقاصده، وحامل لواء وزارته الذي بيمن رأيه عذبت مصادره وموارده، الفقيه الأجلّ الوزير المثيل، الماجد الأثيل، الحسيب الأصيل، العالم العلم، الطّاهر الظّاهر، العظيم المفاخر، الكريم المآثر، إمام البلاغة، وفارس البراعة واليراعة، فخر الرئاسة، ومدبّر فلك السّياسة، الخطيب الحافل، الصّدر الفاضل

الشّمائل، الحبيب الخالص، الأودّ الأصفى، أبي عبد الله محمد ابن الوزير الجليل الأوحد الأعلى، الصدر الكبير الخطير الشهير الأسنى، الحافل الفاضل، الظّاهر الطاهر، السّامي الأرقى، المعظّم الموقر، الشهيد المقدّس السعيد، أبي محمد بن الخطيب، وصل الله سعادته، وحرس مجادته، وحفظ رتبته الرّفيعة ومكانته، وبلّغه أمله الأرضى وإرادته. لما كان أبقاه الله مدبّر ملك المولى أبيه، وظهيره الذي لم يزل يدنيه ويصطفيه، وعماده الذي ألقى إليه مقاليد الملك، حين علم أنه صدر الأولياء وواسطة السّلك، ووزيره الذي اعتمده بإدارة أمره، وركن إلى مناصحته في سرّه وجهره، وقلّده نجاد الوزارتين، وحلّاه بحلى الرّئاستين، فاكتفى منه عن الأثر بالعين، ونشر له لواء الولايتين، فتلقّاه بيمينه، وقام مضطلعا بأمره قيام الأسد دون عرينه.

وحين انعقد هذا الأمر العلي، قام بسياسة ملكه أحسن قيام وأوفاه، وأداره فأصاب في إدارته مرمى السّداد الذي لم يوافقه إلّا إياه. واستولى في هذه الميادين على غاية الكمال، واضطلع بالرّئاسة والسّياسة اضطلاع أفذاذ الرجال. ولم يزل يدفع عن حماه، ويذبّ عن حوزته بما يحبّه الله ويرضاه، حتى انتظمت بالسّعود أفلاكه المنيفة وأملاكه، ودارت بالتّأييد أفلاكه.

ولما كان الشّقي الغادر الذي اغتصب الحقّ، وطهر منه الطرق، قد جار على جانب المعتمد به في ماله، وتعدّى بالبغي على حاله، ظلما وعدوانا، وجورا وطغيانا، لم يقدّم، أيّده الله، عملا، عند العودة إلى ملكه المؤيد، وسلطانه الأسعد، وفخره المجدّد المؤيد، وأخذ الله تعالى له، من الظّالم أعظم الثّار، وأمدّه بإعلامه وإظهاره بأعظم الأنصار، على أن صرف عليه جميع أملاكه التي خلصت له بالشّرع موجباتها، ووضعت في سبيل الاستحقاق بيّناتها، مما كان الغادر قد غصبه له وانتهبه، وقطع بالباطل عنه سببه، ومكّنه، أيّده الله، منها باحتيازها، وتولّى لنفسه إحرازها، وعاد بهذا التّسويغ الملكي يوم عودتها إليه خيرا من أمسه، هنّأه الله الانتفاع بها في العمر الطويل، وحفظها عليه وعلى عقبه، يتملّكها الجيل منهم بعد الجيل. وهي كذا وكذا، بداخل الحضرة وخارجها، وكذا وكذا من البلاد. سوّغ إليه، أيّده الله، ذلك تسويغا شرعيّا، ورفع به عنه فيه الأغراض، رفعا كلّيّا أبديّا، وتبرأ من حق يتعلّق به، أو شبهة تتطرّق بسببه. فليتصرف، أعزّه الله، في ذلك بما شاء من أنواع التصرفات، على ما توجبه السّنّة الواضحة الآيات، من غير حجر عليه، ولا تعقّب لما لديه. وشمل حكم هذا التّسويغ الجسيم، والإنعام العميم، جميع ما يستغلّ على الأرض والجنّات والكروم، والثّمرات من العوائد المستقبلة عليها، والغلّات، شمولا تاما، مطلقا عاما، وأن يكون هذا ثابتا صحيحا، ومن الشّكّ

مزيحا، وحكمه على الأيام، واتصال الشهور والأعوام، متصل الدوام. كتبنا خطّ يدنا شاهدا بإمضائه، وسجّلنا الحكم باستقلاله واقتضائه. فليعلم ذلك من يقف عليه، ويعتبر ما لديه. وذلك في اليوم الثاني لرمضان المعظم من عام ثلاثة وستين وسبعمائة. صح هذا».

ولمّا قضى الله بالانصراف إلى العدوة الغربية، صدرت عن سلطانها أمير المسلمين أبي سالم منشورات رفيعة منها، وقد تشوّفت إلى مطالعة بلاده الغربية، وجهاتها المرّاكشيّة، بقصد لقاء أهل الصلاح والعبادة، وزيارة ملاحد السّادة، ما نصّه:

«هذا ظهير كريم أشاد بالتّنويه الفسيح المجال، والإكرام السّابغ الأذيال، وأعاد النعم بعد إبدائها عميمة النّوال، ووارفة الظّلال، وألقى في يد المعتمد به صحيفة الاعتناء حميدة المقال، مقتضبة ديوان الآمال، ورفع له لواء الفخر العزيز المنال، على النّظراء والأمثال. حكم بإعماله، وإمضاء أمره الكريم وامتثاله، عبد الله المستعين بالله إبراهيم ابن مولانا أمير المسلمين، المجاهد في سبيل الله رب العالمين، أبي الحسن ابن مولانا أمير المسلمين المجاهد في سبيل رب العالمين أبي سعيد ابن مولانا أمير المسلمين المجاهد في سبيل رب العالمين أبي يوسف بن عبد الحق. أيّد الله أمره، وأعزّ نصره، للشيخ الفقيه الأجلّ، الأعزّ الأسنى، الوزير الأمجد الأنوه المحترم، الملحوظ، الأثير الأكمل، السّري

الحظيّ الذكي الأخلص، أبي عبد الله ابن الشيخ، الوزير، الفقيه الأجلّ، الأعز الأسنى الأمجد، الحسيب الأصيل، الأنوه الأنزه، الأثير الأكمل، المبرور المرحوم أبي محمد بن الخطيب، وصل الله حظوته، ووالى عزّته.

جدّد له الحظوة التي يضفى لباسها، وصحح بنظر البرّ والإكرام قيامها وشيّد بمباني الحفاية التي مهّد أساسها، لما وفد على بابه الكريم عائذا بجواره، وملقيا في ساحة العزّ المشيد عصا تسيار ومجريا في ميدان الثّنا جياد أفكاره، ومعتمدا على نظرنا الجميل في بلوغ آماله وحصول أوطاره، فسحنا له في ميدان البرّ والتّرحيب فبلغ مداه، وأنس في حضرتنا الكريمة أنوار العناية التي كانت هداه، وأحللناه من بساطنا المحلّ الذي اشتمل به العزّ وارتداه، وكمل له الأمل ووفّاه. وأذنّا له تفنّنا في إسداء النّعم الثرة، وتلقّي وفادته بوجوه القبول والمبرّة، في زيارة التّربة المقدّسة بشالة «١» المعظمة، حيث ضريح مولانا المقدّس، ومن معه من أسلافنا الكرام، نوّر الله مثواهم، وجعل في الجنة مأواهم. وهذا الغرض الجميل، وإن عدّ من أنواع التكريم، والإحسان العميم، فهو السّعي الذي تصرف إليه وجوه القبول والرضا والاهتمام، والرغبة التي يصفى لها موارد الإسعاف عذوبة الحمام، والتقرّب الذي تؤثره مهاد البرّ المستدام، ولفاعله مزيّة الاعتناء والتّقديم، وجزاء القيام بخدمة

سلفنا الكريم، وقد أذنّا له في مشاهدة تلك الجهات من حضرتنا العليّة إلى مرّاكش المحروسة للقاء الأعلام، واجتلاء المعاهد الكرام، والآثار الباقية على الأيام، كيف أحبّ وعلى ما شاء من إراحة أو إلمام، مصحبا بمن ينوّه به في طريقه من الخدّام تنويها للكرامة وتعديدا، وتجديدا للعناية وتأكيدا. فليعلم بذلك، ما له في بابنا الكريم من الاعتناء، وما اعتدنا لمحبي أسلافنا الكرام من الجزاء، ويجري في جميع مآربه وأحواله على النّهج السواء، مراعى حال إيابه إلى مقرّه من حضرتنا العليّة، ومحلّه من بساطنا الأشرف، وعرضه أعمال القائمين ببرّه، وأكرمنا بين أيدينا، فيجني المبادرة إلى توفية آماله، وثمرة أعماله، ويقابل القائم بمبرّته، والله المستعان. وكتب بالمدينة البيضاء، مهّدها الله، في الحادي والعشرين لربيع الثاني عام أحد وستين وسبعمائة: وليعتمد لوزيرنا الشيخ الأجلّ الحظي الأكمل أبو الحسن علي بن العباس، أكرمه الله، على أن يدخله إلى المساكن العلية بقصبة مراكش، حرسها الله، ليشاهد الآثار السلطانية التي انتظمت في سلكنا، وعفّى عليها جديد ملكنا، فليعلم ذلك، وليعمل به، والله المستعان، وكتب في التاريخ المؤرخ به».

وجرّ هذا الإنعام دنيا عريضة، تفتّقت فيها المواهب، ووضحت من اشتهارها المذاهب، شكر الله نعمته، ووالى على تربته رحمته.

وصدر لي عن المتصيّر إليه أمره ما نصّه، وهو بعض من جملة، ونوع من أجناس مبرّة:

«هذا ظهير كريم، نظم العناية ووصلها، وأجمل الرعاية وفصّلها، وأحرز مواهب السعادة وحصّلها، أمر بإبرامه، والوقوف عند أحكامه، عبد الله المتوكل على الله محمد، أمير المسلمين، المجاهد في سبيل ربّ العالمين، ابن مولانا الأمير عبد الرحمن ابن مولانا أمير المسلمين، المجاهد في سبيل رب العالمين أبي الحسن، ابن مولانا أمير المسلمين، المجاهد في سبيل رب العالمين أبي سعيد، ابن مولانا أمير المسلمين المجاهد في سبيل رب العالمين، أبي يوسف بن عبد الحق، أيّده الله ونصره، وسنى له الفتح المبين ويسّره، للشيخ الفقيه الأجلّ، الأسنى الأعزّ، الأحظى والأرفع، الأمجد الأسنى، الأنوه الأرقى، العالم العلم، الرئيس الأعرف، المتفنّن الأبرع، المصنّف المفيد، الصّدر الأحفل، الأفضل الأكمل، أبي عبد الله، ابن الشيخ الفقيه الوزير الأجلّ، الأسنى الأغرّ، الأرفع الأمجد، الوجيه الأنوه، الأحفل، الأفضل، الحسيب الأصيل الأكمل، المبرور المرحوم أبي محمد بن الخطيب، أيّده الله بوجه القبول والإقبال، وأضفى عليه ملابس الإنعام والإفضال، ورعى له خدمة السّلف الرفيع الجلال، وما تقرّر من مقاصده الحسنة في خدمة أمرنا العال، وأمر في جملة ما سوّغ من الآلاء الوارفة الظّلال،

الفسيحة المجال، بأن يجدّد له حكم ما بيده من الأوامر المتقدم تاريخها، المتضمنة تمشية خمسمائة من الفضّة العشرية في كل شهر، عن مرتّب له ولولده الذي لنظره، من مجبى مدينة سلا، حرسها الله، في كل شهر، من حيث جرت العادة أن يتمشى له، ورفع الاعتراض ببابها فيما يجلب من الأدم والأقوات على اختلافها، من حيوان وسواه، وفيما يستفيده خدّامه بخارجها وأحوازها من عنب وقطن وكتّان، وفاكهة وخضر وغير ذلك، فلا يطلب في شيء من ذلك بمغرم ولا وظيف، ولا يتوجّه فيه إليه بتكليف. يتّصل له حكم ما ذكر في كل عام، تجديدا تاما، واحتراما عاما، أعلن بتجديد الحظوة واتصالها، وإتمام النّعمة

وإكمالها، من تواريخ الأوامر المذكورة إلى الآن، ومن الآن إلى ما يأتي على الدوام، واتصال الأيام، وأن يحمل جانبه فيمن يشركه أو يخدمه محمل الرّعي، والمحاشاة من السّخرة متى عرضته، والوظائف إذا افترضت، حتى يتّصل له تالد العناية بالطّارف، وتتضاعف أسباب المنن والعوارف، بفضل الله، وتحرّر له الأزواج التي يحرثها، تبالغت من كل وجيبة، ويحاش من كل مغرم أو ضريبة، بالتحرير التّام، بحول الله وعونه. ومن وقف على هذا الظهير الكريم، فليعمل بمقتضاه، وليمض ما أمضاه، إن شاء الله. وكتب في العاشر لشهر ربيع الآخر من عام ثلاثة وستين وسبعمائة. وكتب في التاريخ».

وهذا ومثله، لولا أنه أحظوظ ربما انتفع العقب بوضمها، ورمى غرض الإغفال بسهمها، لم يعن بها، من يرى أن لا جدوى إلّا في التقوى، وأنّ يد الله من هذه الأسباب الضّعيفة أقوى.

وأما ما رفع إليّ من الموضوعات العلمية، والوسائل الأدبية، والرسائل الإخوانية، لمّا أقامني الملك صنما يعبد، وجبلا إليه يستند، صادرة عن الأعلام، وحملة الأقلام، ورؤساء النّثار والنّظام، فجمّ يضيق عنه الإحصاء، ويعجز عن ضمّ نشره الاستقصاء. فربما تضمّن هذا الكتاب– كتاب الإحاطة– هذا منه كثيرا، منظوما ونثيرا، جرى في أثناء الأسماء، وانتمى إلى الإجادة أكبر الانتماء.

غفر الله لي ولقائله، فما كان أولاني وإيّاه بستر وزره، وإغراء الإضراب بغروره، فأهون بما لا ينفع، وإن ارتفع الكلم الطّيّب لا يدفع، اللهمّ تجاوز عنّا بكرمك وفضلك.

المشيخة:

قرأت كتاب الله، عزّ وجلّ، على المكتّب، نسيج وحده، في تحمّل المنزّل حقّ حمله، تقوى وصلاحا، وخصوصيّة وإتقانا، ونغمة، وعناية وحفظا، وتبحّرا في هذا الفن، واضطلاعا بضرائبه، واستيعابا لسقطات الأعلام، الأستاذ الصالح أبي عبد الله بن عبد الولي العوّاد، كتبا ثم حفظا، ثم تجويدا، إلى مقرئ أبي عمرو، رحمة الله عليهما. ثم نقلني إلى

أستاذ الجماعة، ومطيّة الفنون، ومفيد الطلبة، الشيخ الخطيب أبي الحسن القيجاطي، فقرأت عليه القرآن والعربيّة، وهو أول من انتفعت به وقرأت على الحسيب الصدر أبي القاسم بن جزي. ولازمت قراءة العربية والفقه والتفسير، على الشيخ الأستاذ الخطيب أبي عبد الله بن الفخّار البيري، الإمام المجمع على إمامته في فن العربية، المفتوح عليه من الله فيه، حفظا، واضطلاعا ونقلا وتوجيها، بما لا مطمع فيه لسواه.

وقرأت على قاضي الجماعة الصدر المتفنّن أبي عبد الله بن بكر، رحمه الله. وتأدّبت بالشيخ الرئيس صاحب القلم الأعلى، الصالح الفاضل، أبي الحسن بن الجيّاب.

ورويت عن كثير ممن جمعهم الزمان بهذا القطر من أهل الرّواية، كالمحدّث أبي عبد الله بن جابر، وأخيه أبي جعفر، والقاضي الشهير بقيّة السلف، شيخنا أبي البركات ابن الحاج، والشيخ المحدّث الصالح أبي محمد بن سلمون، وأخيه القاضي أبي القاسم بن سلمون، وأبي عمرو ابن الأستاذ أبي جعفر بن الزّبير، وله رواية عالية. والأستاذ اللغوي أبي عبد الله بن بيبش، والمحدّث الكاتب أبي الحسين التّلمساني، والشيخ الحاج أبي القاسم بن البناء، والعدل أبي محمد الزرقون، يحمل عن الإمام ابن دقيق العيد، والقائد الكاتب ابن ذي الوزارتين أبي عبد الله بن الحكيم، والقاضي المحدّث الأديب، جملة الظّرف، أبي بكر بن

شبرين، والشيخ أبي عبد الله بن عبد الملك، والخطيب أبي جعفر الطّنجالي، والقاضي أبي بكر بن منظور، والرّاوية أبي عبد الله بن حزب الله، كلّهم من مالقة، والقاضي أبي عبد الله المقري التّلمساني، والشّريف أبي علي حسن بن يوسف، والخطيب الرئيس أبي عبد الله بن مرزوق، كلّهم من تلمسان. والمحدّث الفاضل الحسيب أبي العباس بن يربوع السّبتي، والرئيس أبي محمد الحضرمي السّبتي، والشيخ المقرئ أبي محمد بن أيوب المالقي، آخر الرواة عن ابن أبي الأحوص، وأبي عثمان بن ليون من ألمرية، والقاضي أبي الحجاج المنتشاقري من أهل رندة، وطائفة كبيرة من المعاصرين، ومن أهل العدوة الغربية والمشرق، الكثير بالإجازة. وأخذت الطبّ والتّعاليم وصناعة التعديل عن الإمام أبي زكريا بن هذيل «، ولازمته. هذا على سبيل الإلمام. ولو تفرّغت لذكرهم، لخرج هذا التّقييد عمّا وضع له.

التواليف:

من ذلك: «اللمحة البدرية، في الدولة النّصرية»، والحلل المرقومة، و«مثلى الطّريقة»، و«السّحر والشّعر»، و«ريحانة الكتّاب» في أسفار ثمانية، وكتاب «المحبّة» في سفرين، و«الصّيّب والجهام» مجموع شعري، و«معيار الاختيار»، و«مفاضلة بين مالقة وسلا». و«رسالة الطّاعون»، و«المسائل الطبّية»، سفر. و«الرّجز في عمل

التّرياق» و«اليوسفي في الطّب»، في سفرين. و«التّاج المحلّى»، في سفر. و«نفاضة الجراب»، في أربعة أسفار. و«البيزرة» في سفر.

«والبيطرة» في سفر، جامع لما يرجع إليها من محاسن الخيل، وغير ذلك. ورسالة «تكوين الجنين». و«الوصول، لحفظ الصحة في الفصول». و«رجز الطّب».

و«رجز الأغذية». و«رجز السّياسة». وكتاب «الوزارة»، و«مقامة السّياسة». وكتاب «الإحاطة» هذا في خمسة عشر سفرا. إلى ما صدر مني في هذا العهد القريب، وهي «الغيرة، على أهل الحيرة»، و«حمل الجمهور، على السّنن المشهور».

و«الزّبدة الممخوضة»، و«الرّميمة». و«الرّد على أهل الإباحة»، و«سدّ الذّريعة، في تفضيل الشّريعة». و«تقرير الشّبه، وتحرير المشبّه" و«استنزال اللطف الموجود، في سر الوجود» ومن التواليف الصادرة قديما: «بستان الدول»، وهو موضوع غريب، ما سمع بمثله، قلّ أن شذّ عنه فنّ من الفنون، يشتمل على شجرات عشر: أولها شجرة السلطان، ثم شجرة الوزارة، ثم شجرة الكتابة، ثم شجرة القضاء والصلاة، ثم شجرة الشّرطة والحسبة، ثم شجرة العمل، ثم شجرة الجهاد، وهو فرعان، أسطول وخيول.

ثم شجرة ما يضطر باب الملك إليه من الأطبّاء، والمنجمين، والبيازرة، والبياطرة، والفلاحين، والندماء، والشّطرنجيين، والشعراء والمغنّين. ثم شجرة الرّعايا. وتقسيم هذا كله غريب، يرجع إلى شعب وأصول، وجراثيم وعمد، وقشر ولحاء، وغصون، وأوراق، وزهرات مثمرات وغير مثمرات، مكتوب على كل جزء من هذه الأجزاء اسم الفن المراد به. وبرنامجه صورة بستان، كمل منه نحو ثلاثين جزءا تقارب الأسفار، ثم قطع عنه الحادث على الدولة. و«أبيات الأبيات» و«فتات الخوان، ولقط الصّوان» في سفر، يتضمن المقطوعات. و«عائد الصلة» في سفرين، وصلت به «صلة» الأستاذ أبي جعفر بن الزبير. و«تخليص الذهب في اختيار عيون الكتب الأدبيات». و«جيش التّوشيح». و«طرفة العصر، في دولة بني نصر»، ثلاثة أسفار. إلى غير ذلك، حتى في الموسيقا وسواها. هذر كثّف به الحجاب، ولعب بالنفس الإعجاب، وضاع الزمان ولا تسل بين الرّد والقبول والنفي والإيجاب. ولله درّ القائل:

والكون أشراك نفوس الورى ... طوبى لنفس حرّة فازت
إن لم تحز معرفة الله قد ... أورطها الشيء الذي حازت

وكلّ ميسّر لما خلق له، ولا حول ولا قوة إلّا بالله العلي العظيم.

الفهرس